

Naemy, Mikhail.

"

مِنْخَانِيَا نَعِيْمَه

/kān mā kān/

كَانَ مَا كَانَ

الطبعة الثانية



مكتبة صادر
ببيروت

PJ
7852
.A5
K3
1950
C.1

الحقوق محفوظة للمؤلف

ساعة الكوكو

اثمن الهبات هبة تجهل واهبها .
في حقيبتى رسالة هي عندي انفس ما وهبنيه الناس حتى
اليوم . تسلمتها في اوائل ايار سنة ١٩٢٢ قتلوتها ولم اقع فيها
على اقل اثر استدل منه على مرسلها ومحل اقامته . وجل ما
اهديت اليه من مضمونها وطابع البريد على غلافها انها رسالة
من قرية لبنانية صغيرة .

احتفظت بهذه الرسالة منذ تسلمتها حتى اليوم املاً بان يعود
كاتبها ويذكرني ولو بسطر او سطرين . ويطلعني على اسمه
وعنوانه فأشكر له في الاقل تحفته واستأذنه بعرضها على الناس
اذ حرام ان تدفن بين اوراق قديمة مهلهة .

الا انه ما كان ليحقق املي . لذلك آخذ المسؤولية على
نفسي ، وانشر اليوم هذه الرسالة الغريبة ، حتى اذا ما كان
كاتبها حاملاً للآن قسطه من هموم هذه الحياة ، واتفق ان وقعت
عيناه على هذه السطور فليقرأ بينها شكر قلب سيظل يذكره
بالخير حتى آخر نبضة . وان تكن روحه قد اجتازت الهوة
فلها من روحي الف رحمة ورحمة .

والى القارئ الرسالة، بعد حذف التحيات والسلامات وكل
الخصوصيات :

«... مات امس في هذه القرية رجل عظيم . وقد دفناه
اليوم . وها انا اكتب اليك وعلى يدي آثار من تراب الرمس .
» دفناه نحن رجال القرية ونسوتها ، من اكبرنا الى اصغرنا ،
ما خلا كاهنينا - كاهن الكنيسة الشرقية وكاهن الكنيسة
الغربية . لان كلاً منهما ادعاه من رعيته وليس منهما من تمكن
من اثبات دعواه ، اذ كان الفقيد يتردد في حياته على الكنيستين
بالسواء . لكنه لم يجاهر قط بمذهب ، ولا تناول الاسرار
الالهية في كنيسة من الكنيستين . فحسماً للخلاف دفناه لا
كهنة ، ولا مبخر ، ولا شموع . وذاك اول مآتم شهدته في
حياتي من نوعه .

« ان انا قلت لك ان كل حفنة من تراب الرمس الذي
ساعدت اليوم في حفره وردمته بيدي مع الرادمين عادت اليه
مروءة بالدموع - دموعي ودموع كل من حضر - ، ان قلت
لك ذلك فصدقني لانني لست كاتباً ولا شاعراً .

« ان العظمة التي ترونها انتم معشر الكتّاب والشعراء ، ان
في انفسكم او في الناس ، اكثر ما تكون قرقعة عظام في
الذست . اما القدر الملائمة غذاء طيباً ، والتي تغلي على مهلها ،

فلا تسمعونها ولا ترون ما فيها . فمن صَنَّف كتاباً رائجاً او نظم ديواناً رائجاً - عظيم . ومن اخترع ملهاة جديدة للبشر - عظيم . ومن صور صورة جميلة - عظيم . ومن ربح معركة حربية - عظيم . هذه العظمة ترونها وتسمعونها لانها قرقاعة . اما العظمة الساكنة فأذا نكم دونها صماء ، وابصاركم عنها كليلية وعمياء . وماذا عساكم تسمعون اذا كنتم لا تسمعون صوت العظمة الساكنة ؟ وماذا عساكم تبصرون اذا كنتم لا تبصرون وجه العظمة المتسترة ؟

« ان من دفنائه اليوم لم يصنف كتاباً قط ، ولا نظم قصيدة ، ولا نحت تمثالاً ، ولا اكتشف علاجاً ، ولا اخترع مهلكة جديدة للبشر . وكان مع ذلك عظيماً امس ، وهو عظيم اليوم ، وسيظل عظيماً غداً .

« ولماذا؟ لانه اضاع نفسه ثم وجدها . لانه تعارك مع ساعة الكوكو فانتصر عليها . وحتى اليوم لم اسمع بواحد منكم تغلب على ساعة الكوكو . ومتى أضعت نفسك يا سيدي ثم وجدتها ، متى انتصرت على ساعة الكوكو اكون اول الشاهدين بعظمتك .

« جاءنا هذا الرجل منذ سنتين وهو لا يعرف القرية ولا احداً فيها ، ولا احد في القرية يعرفه . وليس من يعرفه في القرية حتى اليوم الا انا . فقد باح لي بسرّه قبل موته . وها انا ابوح لك به ، ولست بجاهلاً الى حد ان اسألك حفظ السر .

لاني اعرفكم معشر الكتاب والشعراء لا تحفظون سرّاً ولا
ترعون عهداً . فكلكم غام فضاح . اذا لم يفضح السر بلسانه
فضحه بقلمه ، وان لم يكن له ما يفضح فضح اسرار نفسه .

« انت لبناني وتعرف اخلاق القرويين في لبنان ، لا سيما
في قرية صغيرة كهذه . اذا طرقتهم غريب لا يوصدون ابوابهم
في وجهه . ولا يطعمونه اللقمة بيمينهم ويسارهم ممدودة الى
كبسه . لكنهم يكثرّون السؤال شأن القرويين في كل مكان
اذا حل بهم غريب : مَنْ ؟ ومن اين ؟ ولماذا ؟ ونحوها
من الاسئلة .

« ولم تكن الا عشية وضحاها حتى شاع في القرية ان الزائر
الغريب رجل اميركي اسمه « طمسن » . وانه ولد في لبنان
وقضى فيه صباه وقسماً من شبابه . ثم عاد الى بلاده وراء
البحار حيث اشتغل عشرين عاماً فانتهكت قواه . وذكر لبنان
فأحب ان يرجع اليه ليسترد همته ونشاطه . وقد اختار قريتنا
لطيب مناخها وجمال موقعها .

« رأيت الرجل في اليوم الثاني بعد قدومه الى القرية .
فوجدت في وداعة عينيه جاذباً ، وفي هيبة طلعمته دافعاً . كأن
عينيه كانتا تقولان لي : ادنْ مني يا اخي . اما هيئته فكانت
تقول : لا تلمسني ! فدنوت منه ولم ألمسه ، وهكذا بقيت قريباً

منه بعيداً عنه ، الى ان كان يومٌ لمسته فيه ، بل عانقته
حتى كأنني وياه واحد . ذاك يوم فتح لي صدره وقال :
ها أنذا !

« ألسنت ترى ان الناس يسيرون في الحياة اسراراً ؟
فالانسان يقترب من الانسان بقدر ما يقترب المتشابهان في
الظاهر : هذا سر وذاك سر . وهنا تنتهي القرابة ويتعد
الانسان عن الانسان بقدر ما يجهد كلٌّ في كتمان سره . اما
ساعة يكشف الانسان الانسان سره - ساعتئذ تنصرم فواصل
الزمان ، وتنداني مسافات المكان ، ويلتقي الاخ اخاه .
وسياتيك الحديث .

« هل فكرت في حياتك ان الفطرة حقيقة صافية ، والمدنية
رياء موشى ؟ اعتبر ذلك في ان ابناء الفطرة يسعون ابداً الى
تطبيق الاسم على المسمى . فحيثما شعروا بتنافر بين الاثنين
لجأوا الى الالقاب والكنيات او ما يدعونه الاسماء « الملبقة » .

« مستر طمسن . مستر .. وطمسن .. كلمتان لا تؤديان
معنى قط لابناء قرية لبنانية . وعلاوة على ذلك لا « تدوران »
على ألسنتهم . ولا تعبّران عن شيء من الخلال التي اكتشفوها
في الرجل . لذلك كان من حسن ذوقهم وصدق فطرتهم ان
« لبقوا » لمستر طمسن كنية « بومعروف » .

« بومعروف، وهل تدري ما يعنيه القروي اللبناني بكلمة :
« المعروف » ؟ خذ كل فضيلة عرفها الناس من آدم حتى اليوم :
المحبة ، الرفق ، الشهامة ، الصدق ، العدل ، المسالمة ، اللطف ،
الدعة ، نكران الذات . خذ هذه الفضائل وامزجها يكن لك
من مزيجها « المعروف » . واذا اجمعت كلمة اهل قرية لبنانية
على تلقيب رجل بأبي المعروف ، فاعتبر ذلك اصدق شاهد على
ان الرجل فلتة من فلتات الزمان .

« ما هي الا اسابيع قليلة حتى اصبح بومعروف عشيق
صغارنا ، وحبیب كبارنا ، ورفیقنا في كل افراحنا واتراحنا ،
وشريكنا في كل اعمالنا ، وقاضينا في كل مشاكلنا ، ومرجعنا
في كل متعبة وشدة . وقبلما كان يمر بنا يوم لا نسمع فيه بمأثرة
جديدة له يصنعها في السر فتخبر عنها محبتنا في العلانية . ولو
جئت لاسرد لك مآثره لما استطعت . غير اني اذكر منها
واحدة ، وهي انه منذ حل بومعروف هذه القرية لم يهاجر من
ابنائها ولا واحد . وكنا قبل ذلك لا نستقبل مهاجراً عائداً
حتى نودع عشرة نازحين . فتأمل !

« اسألك ان تتأمل لانك لو تأملت لرأيت في ذلك عجيبة .
« وكيف صنع بومعروف هذه العجيبة ؟ بطريقة هي البساطة
بعينها . والبساطة البسيطة هي اجمل ما في الكون واندر ما

في الناس . فهي عجيبة . لقد جعلنا بومعروف نحب قريتنا ،
نحب تربتها ، وماءها ، وهواءها ، وصخورها ، ووعورها ،
وسهولها ، واورديتها ، وجبالها ، لانه هو احبها بكل قواه .
فانتقلت محبته اليها بالعدوى . جعلنا بومعروف نشعر ونفهم
ونؤمن ان لا حياة لنا بدون الارض ، وان الارض لا تعطف
الا على من يعطف عليها . فاذا لم تعطف علينا ارضا فليس في
المشارك والمغارب بقعة غيرها تعطف علينا . اذ ان من لا يعرف
كيف يستعطف ارضه لا يعرف كيف يستعطف سواها . ومن
فقد عطف الارض فقد الحياة ، فكان شريداً طريداً ايها حل
وان جمع من المال جبلاً . •

« وأذكر من اقوال بومعروف الشيء الكثير ، وليتني
اذكره كما فاه به . واليك بعضه مشوهاً بلغتي العوجاء :
« من الارض لباسك ، ومن الارض غذاؤك ، ومن الارض
مأواك . فما اجهلك تحتال على الحياة لتحصل على لباسك
وغذاؤك ومأواك من غير ان تلمس الارض ! »
« لا بد للانسان في تحصيل رزقه من شريك ، فطوبى لمن اتخذ
الارض شريكه لانه ينام ملء اجفانه ! »
« التجارة حيلة لصيد المال ، والمال حيلة لسرقة ائثار الارض
من شركاء الارض ، لكنها حيلة تقتل محتاليها . »

« اذا دفنتَ في الارض حبة فاعطتك عشر حبات فاين هو الرجل الذي يجسر ان يدل عليك باصبعه قائلاً : « هوذا سارق »؟ اما اذا انفقت فلساً فعاد اليك فلسين فكثيرة هي الاصابع التي تشير اليك ، وان لم ترها . وكثيرة هي اللسنة التي تقول : هوذا سارق، وان لم تسمعها . غير ان الحياة ترى تلك الاصابع وتسمع تلك اللسنة . والحياة تذكر ما ترى وتحفظ ما تسمع . »

« ان في التراب لعطراً لا تعرفه حوانيت العطارين . »
« الارض هي الفاتحة في مصحف الوجود . من قرأها كان في غنى عن كل ما حوته الكتب . »

« السعيد من سعد حيث كان . والتاعس من راح يبحث عن السعادة في مكان آخر . »

« احب الي روح نظيفة في جسم قدر من روح قدرة في جسم نظيف . واحب الي من الاثنين روح نظيفة في جسم نظيف . الارض روح طاهر في جسم طاهر ، فلاصقوها بارواحكم واجسامكم ان شئتم ان تكونوا من الطاهرين . »

« الناس عبيد الناس . انا عبد من في يده قضاء حاجتي . ومن في يده قضاء حاجتي عبد من في يده قضاء حاجته . فعبدكم سيد وسيدهم عبد . وهل اظلم من عبد اذا ساد او احقر من سيد اذا استعبد ؟ اما الذين قضاء حاجتهم في حوزة الارض

فهؤلاء احرار لان الارض لا تساد ولا تستعبد، فهي ميزان العدل الالهي . »

« الارض لا تخجل من ان تنبت الوردة والشوكة والقمح والزوانة ، لان كل ما في جوفها طاهر . اما الناس فيستحيون من اشواكهم وزوانهم ، فيحاولون بكل قدرتهم خنقها . لذلك تخنقهم . تعلموا الصدق من الارض . »

« رأيت رجلاً ينخل التراب فيحتفظ منه بذرات صفراء برافة ويطرح ما بقي . ورأيت آخر يبذر فيما طرحه الاول من التراب حبات من الحنطة . وبعد عام كانت جماعة في الارض فرأيت الرجل الاول راكعاً امام الثاني وفي يده نقود صفراء برافة وسمعه يقول : « ألا بعني صاعاً من الحنطة ولو بعشرين ديناراً ؟ » وسمعت صاحب الحنطة يقول : « لقد رضيت بغلتي من التراب فكن راضياً بغلتيك . »

« ليتني دونت كل كلمة سمعتها من بومعروف، فكلماته كانت مواظ . وكان ينطق بها دون ما تصنع او تكلف ، ليس من على المنابر ولا في المجالس الحافلة ، بل في الحقول والكروم ، ويده قابضة على المحراث او المقصل او الرفش او المعول ، لانه ، كما قلت لك ، صار منا وفينا . يعمل اعمالنا ، ويلبس لباسنا ، ويأكل ما نأكل ، ويشرب ما نشرب . ولم كنت احب

منظره في العباءة و « الشروال » و « اللسادة » ! كلما صورته امامي فاضت عيناى بالدموع . وها انا ابكي الآن وقد سقطت دمعة على هذه الورقة . فيا اضياعها ، لانك لن تراها ، ولن تشعر بها ، ولن تفهم المحبة التي فيها . كما اني اخشى انك لن تفهم ما سرده لك من اقوال بومعروف لانك لا تعرف دموع المحبة . ولا تفهم لغة الارض . وبومعروف كان يفهم لغة الارض ويعرف دموع المحبة .

*

« بومعروف ، بومعروف ! لقد مات بومعروف ودفناه ، لكنه ما برح حياً في حقولنا وكرومنا وبيوتنا وقلوبنا . كلها يحدث عنه . وافصحها لساناً صخرة شاهقة صماء ندعوها في هذه الجهات « عمود السحاب » . فقد كنا نتسلقها معاً انا وبومعروف ونستلقي على منبسط صغير في اعلاها ، ومن هناك نرسل بصرينا في الفضاء الازرق ونفتح صدرينا للنسيم ، او نتمدد على بطنينا فنطل على وادٍ عميق فيه غابات من الحور والبلوط والسنديان وجدول ينحدر من صدر الجبل فيكر مهلاً بين الصخور والاشجار .

« وكنا متمددين على ظهر تلك الصخرة منذ اسبوعين ، ساندن رؤسنا بايدينا ، ومرفقانا على الصخرة ، وبصرانا متغلغلان

في الوادي، وافكارنا تائهة مع انفاس الربيع . وكان النهار احداً
وقد تجاوز عصره ، ومن الوادي قد ارتفعت زقزقة الالوف من
الحلائق المجنحة . ومر بنا غرابان ونعقا ، فالتفت الي
بومعروف وقال :

« - ما اجمل الغراب يتكلم لغة الغراب ولا يحسد العندليب
على صوته ! وما اجمل العندليب يتكلم لغة العندليب ولا يحسد
الغراب على قوته ! والغراب والعندليب ولدا الطبيعة وهي
تحبهما بالسواء . ليس الامر كذلك بين الناس . فكم من
غراب بشري يشقى لان ليس له صوت العندليب ! وكم من
عندليب بشري يتعس لان ليس له قوة الغراب !
» وسكت فعادنا الى السكوت ، وظللنا فترة طويلة
ساكتين .

« ونحن كذلك ، واذا برفيقي يستوي فجأة جالساً ويشد
بكفيه على صدغيه وقد اغمض عينيه كأن به صرعاً قوياً .
فنظرت الى وجهه واذا به كالزعفران . فدنوت منه ويدي
ترتجفان رغبة وركبتي تصطكان ، وقبل ان افتح فمي
اشار لي بيده ان اعود الى مكاني وقال :

« - لا بأس ، لا بأس ، مسألة عرضية !
» فعادنا الى ما كنا فيه ، وعاد الى وجه بومعروف لونه

وابتسامته ، غير اني ما كدت انسى غرابة ما حدث حتى انتفض
جليسي ثانية وهب واقفاً وشدني بعنف من يدي قائلاً :
« لنذهب ، لنذهب من هنا ! » فامتثلت كالولد الصغير ، الا
اني وقفت هنيئة كالمشلول . فرق بومعروف لحالي ، والتفت
الي وفي عينيه كآبة وحنان وسألني بلطف :
« - أو ما سمعت ؟ أو ما سمعت ؟ »

« فاحذرتي الدهشة ، حتى خيل الي ان رفيقي أصيب بمس
في عقله ، لاني ما ذكرت ان سمعت صوتاً غريباً ، او رأيت
شيئاً خارقاً . »

« - اسمع ، اسمع ! - قال لي ذلك بومعروف واضعاً
كفه على كتفي ، فتكهربت للحال بانفعالاته النفسية ووقفت
اصغي الي كل حركة وصوت علني اسمع ما يفسر لي تصرف
رفيقي الغريب . فلم اسمع سوى جلبة الطيور وحفيف الاوراق
وخير الماء في الوادي . »

« - اسمع ، اسمع ! اسمعت الآن ؟ اسمعت ؟ »
وهزني بومعروف من كتفي هزة شعرت معها كأن « عمود
السحاب » اهتز تحت قدمي . ووقفت مبهوراً احاول ان اذكر
آخر صوت طرق مسمعي فذكرته . غير اني لم اجد فيه ولا
شبه تفسير لذلك المشهد المحير ، فقلت :

« - نعم سمعت !

« قال : وما سمعت ؟

« قلت : كوكو . كوكو ! وهو صوت طائر لا يندر ان

يزور هذه الانحاء في الربيع ونحن نسميه « طير الكوكو » .

« في تلك اللحظة تبدل وجه بومعروف عشرين شكلاً ،

وتوالت هذه الاشكال امام عيني بسرعة البرق حتى ظننتني

بمحضرة جمهور من البشر تلعب بهم كل اصناف العواطف .

ولكنها ، كما قلت ، لم تكن الا لحظة . فما دريت الا

وبومعروف عاد وتمدد على الصخرة وجذبني بلطف لأعود واتمدد

بجانبيه كالسابق . ففعلت وانا كالمسحور لا أدري ماذا اقول

ولا ماذا افكر . الا ان بومعروف الذي سحرني ما عثم ان

حلني من سحره عندما التفت الي بعينه الوديعتين وفتح شففيه

القرمزيتين وكلمني بهدوء هكذا :

« - أعرني سمعك فأقص عليك حكاية الكوكو . »

*

« كان ما كان ، كان في قديم الزمان رجل لبناني وامراته ،

وكان الرجل من حارثي الارض الذين يأكلون خبزهم بعرق

جبينهم والذين يقول فيهم اللبنانيون « فلاح مكفي ، سلطان

مخفي » . وكان له ولامرأته ولد اسمه خطار يحلفان بالله مرة وبه
عشرين مرة . وكان الثلاثة فانعين شاكرين سعيدين بقدر ما
يسمح الله لثلاثة من البشر ان يكونوا سعيدين .

وكان لابي خطار وام خطار جارا ارمل يحرق الارض
كذلك ، وله ابنة اسمها زمرد ، يحلف بالله مرة وبها عشرين مرة .
وهذا الجار كان من حارثي الارض كذلك وكان سلطاناً مخفياً .
ومن غير ان يتبادل ابو خطار وام خطار مع جاره
كلمة واحدة بشأن ولديهم ، كان معروفاً عندهم وعند كل اهل
القرية ان خطاراً لزمرد وزمرداً لخطار ، مثلما كان معروفاً
عند خطار وزمرد ، اذ لم يكن في وسع احدهما ان يصور
نفسه بعيداً عن رفيق صباه وفتوته ، وقد مزجت الايام روحيهما
بأساليبها السحرية التي تفوق كل ادراك .

يقولون ان الحب اعمى . وذاك خطأ . بل الحب مبصر ،
ولكنه ينظر بعين الجمال فيرى كل شيء جميلاً . لذا كان
الحب خلاصة الحياة . فتى أحب الناس الناس تقلصت عنهم كل
ظلال الشناعة فراؤا كل ما فيهم جميلاً . ومتى رأى الناس كل
ما فيهم جميلاً عرفوا الحب . ومتى عرفوا الحب عرفوا الحياة . ولان
خطاراً وزمرداً عرفا الحب ما كان احدهما يرى في رفيقه
غير الكمال .

وكانت سنة ١٩٠٠ وكان صوم الفصح ، فقر رأي ابي خطار

وام خطار وجارهما ان يفرحوا بخطار وزمرد بعد الفصح بقليل،
وراحوا يعدّون العدد للعرس .

وحدث في هذه الاثناء ان عاد من اميركا الى القرية واحد
من ابناؤها اسمه فارس خيبر وله من العمر نحو الاربعين .
فاقبل اهل القرية للسلام عليه وللاستعلام عن ابنائهم
الغائبين . وعادوا من عنده معجبين بزيه الافرنجي وباحاديته
عن عجائب اميركا وبالتحف التي جاء بها من تلك البلاد
الغريبة ، ومنها ساعة كوكو .

هل رأيت في حياتك ساعة كوكو ؟ هي من نوع الساعات
الدقيقة ، لكنها تعلن الوقت لا بقرع الناقوس بل بلسان طائر
اصطناعي في جوفها . فمتى كانت الساعة الثانية عشرة — مثلاً —
انفتحت في اعلاها طاقة وخرج منها ذلك الطائر وردد « كوكو »
اثنتي عشرة مرة، ثم عاد الى جوف الساعة وانقفلت الطاقة خلفه .

وعاد ابو خطار وامراته وابنه وابو زمرد وابنته من عند
فارس خيبر وكل حديثهم في الطريق عن ساعة الكوكو .
وكانت زمرد اكثرهم اعجاباً بها حتى انها ثقت لو سمحت لها
اللياقة ان تبقى في بيت فارس خيبر ساعات متوالية لترى
ذلك الطائر الغريب يخرج من طاقته العجيبة ويهتف : كوكو !
مرّ اسبوع لم يكن فيه من حديث اللقوم الا ساعة الكوكو

وصاحبها . فمن معجب بطلاقة لسانه في الانكليزية ، ومن معجب بعصاه التي هي عصا ومظلة معاً ، ومن معجب بالكالوش - الذي كان يحتذيه كلما افلنت من السحاب ولو بضع قطرات من المطر . واعجاب زمرد بساعته ما كان لينقص بل يزداد .

وقرب وقت العرس فلغطت به القرية وتناست القادم حديثاً من وراء البحار . وكانت ليلة العرس وكل شيء قد اعد على آخر طراز ، وابوخطار وام خطار وابنيهما وجارهما في السماء السابعة من السعادة ، الا زمرد فقد كانت في سماء غير سمائهم ، لانهم طلبوها فلم يجدوها .

وبالاختصار هربت زمرد مع فارس خبير ، وقبل ان يفيق اهل العروس من هول فاجعتهم ويدركوا الدسيسة ويرسلوا الى بيروت من يبحث عن الهاربين ، كان الهاربان على ظهر باخرة وجهتها مغرب الشمس .

بعد اسبوعين قضى ابو زمرد حيرة على ابنته وحرقة من هوانه وخيبته بين الناس . فكان اول ضحية من ضحايا ساعة الكوكو .

اما ابو خطار وام خطار فتجلدا على مصابهما، وساعدهما على التجلد ان خطاراً لم يذرف دمعاً ، ولا عبرت بشفتيه لعنة ،

ولا انطلقت من صدره تنهدة . فقالا ان من أهمه مثل هذا الصبر سيعطيه « نصيباً » يكون خيراً له من نصيبه الاول « فنحن بالتفكير والله بالتدبير . »

وكان يوم خرج فيه خطار الى الحقل ليحرث . وبينما هو يحرث وقف فجأة في منتصف الثلثة والتفت الى نفسه وكل ما حواله وجمد في مكانه ثم خاطب نفسه هكذا :

« حتى متى يا خطار ، حتى متى ؟ لقد دفنت في هذه التربة عشرين من سنينك ، فماذا انبتت لك ؟ ما الفرق بينك وبين هذه الصخور ؟ هي صماء بكماء ، وانت اصم ابكم . ما الفرق بينك وبين هذه الثيران ؟ هي تحرث الارض لتأكل اعشائها ، وانت تحرث الارض لتأكل بقولها واثارها ! ما دمت على هذه الحصيرة يا خطار فحياتك لا طويلة ولا قصيرة .

« علام تنهش قلبك الحبيبة يا خطار ، وفكرة الانتقام من فارس خير وزمرد تسلبك لذة النوم والطعام ؟ من انت بين الناس وماذا تملك وماذا تعرف ؟ انت لا شيء ولا تملك شيئاً ولا تعرف شيئاً .

« لقد طرحتك زمرد من وراء ظهرها وآثرت ساعة الكوكو عليك . فباي حق تلوم زمرداً يا خطار ؟ من انت من ساعة الكوكو وما فهمك من فهم مخترعها ، وما بلادك من البلاد التي

صنعت اجزاءها ور كبت منها آلة غريبة عجيبة ؟ وما ادراك
ان ليس في تلك البلاد ما هو اعجب من ساعة الكوكو
بكثير ؟ فما أسعد تلك البلاد وساكنيها وما اشقاك في بلادك !
« عيب عليك يا خطار ان يسلبك قلبك رجل كفارس
خير ، وما كان فارس خير ليسلبك قلبك لو كان لك ماله وفهمه
ومعرفته . وفارس خير قد خاض من اجلها البحار . فما الذي
يربطك بهذه الصخور والوعور ؟ ام انت جبان ؟ ام انت ميت
ولا تعرف اذك ميت ؟ عيب عليك يا خطار ان تغلبك ساعة
الكوكو ! »

هكذا خاطب خطار نفسه ، ولاول مرة في حياته رأى
كل ما وقعت عليه عيناه شنيعاً وشائئاً : ثيرانه ومحراثه ،
واشجاره وكرومه ، وصخوره . حتى ان التربة الطريئة التي
كان ينشرح لانفاسها صدره ، وترتاح قدماه اذ تغرقان فيها ،
بدت لعينه قذى ونتاجاً ، والثلثة التي ثلما بمحراثه في الارض
بدت له قبراً يحفره لنفسه بيده . والصخور المنتشرة في عرض
الحقل وطوله ، والاشجار المتمايلة بينها ، والعصافير المرمقة على
الاشجار نانت كما لو كانت تنوح عليه او تهزأ به . فرفع خطار
يده عن محراثه وترك ثيرانه ، وادار ظهره الى الحقل ووجهه
الى القرية ، وهناك اعلن والديه انه مزمع على السفر الى اميركا

وان لا مرد لعزمه .

وكانت مناحة ، وكان عويل ، وكان اخذ ورد لكن بلا جدوى . وسافر خطار الى اميركا .

✱

شقي خطار في بدء هجرته ، وجرع من المرارة اكواباً ، وعضه الندم غير مرة وابتز من مقلتيه اكثر من دمة ، وخيم اليأس في روحه ، ومشت في قلبه الحبيبة . الا انه ماكاد يستسلم لقنوطه مرة الا انتهره صوت داخلي قائلاً : عيب عليك يا خطار ، شد حيلك واذكر ساعة الكوكو !

وشد خطار حيله وادرك انه في بلاد مفتاحها الريال ، وان لا حياة فيها لمن لا مفتاح بيده ، وان من لا يقاتل من اجل ذلك المفتاح يظل خارجاً او تدوسه ارجل المقاتلين . فراح خطار يقاتل بيديه ورجليه واظافره واسنانه . ولم يبق له من هم سوى جمع ثروة تفتح امامه عجائب اميركا وغرائبها ، وتكشف له اسرارها ، وترفعه الى مستوى ساعة الكوكو .

وخدمه الحظ بعد حين ، فانفتح امامه باب للكسب ، وتفتحت بعد ذلك الباب ابواب لان المال يجذب المال . وكان اول ما ابتاعه خطار من باكورة ارباحه ساعة كوكو ، واذ ذاك تولدت فيه عزيمة جديدة لانه شعر انه قد ربح اول معركة

في ميدان جهاده الجديد . وفي لذة الانتصار نشوة تدفع
المنتصر الى خوض معارك جديدة للفوز بانتصارات جديدة .

وراحت الايام ، وجاءت الايام ، وكانت المجزرة الكبرى .
فأفاق خطار واذا به صاحب مغالقة تجارية شاسعة . وثروة
ترابي على المليون . وليس ما يذكره بوالديه اللذين قضيا في اثناء
الحرب وبما كان فيه وصار اليه سوى ساعة الكوكو المعلقة على
جدار من جدران منزله الفخم . بل ان ساعة الكوكو ما
كانت تذكره بذلك الا فيما ندر .

وانتقى خطار لنفسه ابنة سورية مولودة في اميركا اسمها
« اليس » واتخذها شريكة لحياته .

*

ليس كالمصائب منبهاً للانسان . فكم من سعادة تأتينا في زي
مصيبة ، ومصيبة في زي سعادة !

اما مصيبة خطار فكانت زوجته « اليس » لانه ما طال ان
ادرك ان بينها وبينه هاوية لا سبيل الى مد جسر فوقها . وان
ما حسبه حباً منها نحوه لم يكن الا تعطشاً الى ماله وما يبتاعه
ماله من ملذات الدنيا . وما حسبه ميلاً منه اليها لم يكن سوى
رغبة خفية في الهرب من وحدته ووحشته . وكم يهرب

الانسان من وحشة الى اوحش منها كمن يهرب من الدلفة الى تحت الميزاب .

في فضاء الحياة سبل شتى ، فلكل انسان سبيل ، ولكل امة سبيل . حتى لكل قارة سبيل . وهذه السبل تلتقي وتفتوق في شبكة لا تدرك اطرافها . ولعل اغرب نقطة في تلك الشبكة هي النقطة التي يلتقي عندها سبيل الشرق سبيل الغرب ، لان الشرق يسير الى محجة الحياة ومركبته قلبه ، وجياده عواطفه وافكاره ، واعنته ايمانه وتقاليده المتصلة بالآزال . بينما الغرب يسير في مركبة روحها البخار او الكهرباء ، وعضلاتها لوالب ودواليب من حديد وفولاذ ، واعنتها ادعاؤه واعتداده بنفسه . وكلها من مبتدعات فكره . فيلتفت الغرب الى الشرق ويحييه هازئاً : مرحباً يا جار ! اراك تجدد وتجدد وتجدد وتبقى مكانك . ويمضي في سبيله فخوراً بمركبته ظاناً انه سيسبق الشرق الى المحجة ، لان مركبة الشرق محجوبة عن عينيه .

وينظر الشرق الى الغرب فيرى عظمة مركبته ويسمع حشرجتها وطقطقتها ، فتبهره حركاتها ، وتسحره سرعتها ، فيقول في نفسه : المجد لك يا جار ، المجد لك يا جار ! اين مركبتي

من مركبتك ؟ الا اسفقت عليّ واذنت لي ان اتعلق
بدواليها ؟

كذا يقول الشرق عندما يلتقي الغرب ، فيطرح مركبته ،
ويبيع روحه ، ليحصل على مركبة كمر كبة جاره .

كذا قال خطار في نفسه يوم ادار ظهره الى ثيرانه وحقله ،
ووجهه الى البحر . فاصطنع له مركبة شدها بمركبة الغرب ،
وراح يطوي في ساعة مسافات ما كان ليطويها في سنة .
فاسكرته السرعة ولم تبقى له من الوقت فرصة ليلتفت الى ورائه
او الى يمينه او يساره ، او ليسأل نفسه الى اين هو سائر .
لكنه عندما اصطدمت مركبته باول عثرة في سبيلها - عثرة
الشقاء البيتي - وجد خطار نفسه كالمحموم وقد غمسته في ماء
بيرودة الثلج .

بدأت صحوة خطار بعد زواجه باسبوعين ، ومن الغريب
ان فاتحة تلك الصحوة كانت فاتحة سكرته ايضاً - ساعة
الكوكو . وذاك ان « اليس » طلبت اليه يوماً ان ينزل تلك
الساعة عن الجدار وي طرحها خارجاً لانها « آلة تنك » قديمة
ومنظرها يشوه جمال القاعة ، وان يأتيها بساعة من الطراز
الجديد . واذ لم يجيبها خطار الى طلبها انهالت عليه بوابل من
التقريع قائلة : انه من « الطقم » القديم ، وانه فلاح باذواقه

ومداركه . وانه لا يعرف في الدنيا غير تجارته ولا يفهم لغة
الا لغة الريال . وانها تحجل به امام رفاقها ورفيقاتها . وانتهت
بأن لعنت اليوم الذي ربطت فيه حياتها بحياته .

وتلت تلك الصدمة صدمات . فخطب خطار نفسه قائلاً :
« ويحك يا خطار، ما الذي فعلته بنفسك ؟ لقد شددت مر كبتك
بدواليب هذه المركبة عشرين عاماً فانتهيت حيث ابتدأت
— بساعة الكوكو — بل قد رجعت القهقري . فمن انت اليوم ؟
وماذا تعرف وماذا تملك ؟

« لقد كنت رجلاً بين الرجال ، لك زند قوي مفتول ،
وصدر عريض مكين ، وقاب شجاع سليم . وكنت سيداً في
بيتك وفي حقلك وفي كرمك . وكنت محبوباً من والديك ،
مكرماً من اهل قريتك . اما اليوم فمن انت ؟ سجين معلق
بدواليب مركبة لا تهدأ طرفة عين ، تكرر وتكرر وتكرر .
والله يدري الى اين . اذا انت قطعت رباطك منها وقعت مهشماً
على الطريق ، واذا بقيت معلقاً بها رأيت روحك بعينيك
تتسلل منك وتنسحق رويداً رويداً تحت الدواليب . لقد شئت
ان تقهر ساعة الكوكو فقهرتك ، وان تملكها فملكته . لقد
غزوتها في عقر دارها فاستقبلتك بالترحاب لتجعلك لولباً من
لوالبها . بل انت احقر من لولب ، واحقر من مسمار في هذه

الآلة الجهنمية . ويحك يا خطر ، فقد كنت كل هذه السنين
كالهر يلحس المبرد ، فيتلذذ بطعم الدم السائل من لسانه جاهلاً
انه دمه .

« وماذا تعرف يا خطر ؟ تعرف لغة جديدة ، وبلاداً
جديدة ، وازياء جديدة . فما كان اغناك عن معرفة ليست
معرفة ، لانك يوم كنت جاهلاً كنت تعرف انك جاهل ، اما
اليوم فتجهل انك لا تعرف .

« وماذا تملك يا خطر ؟ كان زمان وكان لك ثيران واغنام
وحقول وكروم وبيت كان بحق بيتك . اما اليوم . . . في
بابل الجديدة بناية هائلة ، وفي تلك البناية غرف عديدة ، وفي
بعض تلك الغرف رفوف ، وعلى تلك الرفوف منسوجات
غريبة لا تدفع الحر ولا القرع مخلوق . وتلك المنسوجات
هي ملكك ، لكنك لن ترتق بها خروق فؤادك ، ولن تحوك
منها احلاماً جديدة ، ولن تكفن بها افكارك السود . . .

« وفي مصرف من مصارف بابل الجديدة خزانات من فولاذ .
وفي احدى تلك الخزانات اوراق وسندات ورهون مالية . هي
ملكك كذلك . لكنك لن تبتاع بها نعاساً لاجفانك ، ولا
صفاء لفكرك ، ولا حرية لروحك ، ولن تستعيد بها والديك
ولا زمرداً ! . . »

ومر امامه خيال زمرد ، وللحال انتصب بجانبه خيال اليس ،
فراح خطار يقابل بينهما عن غير قصد منه : « ما كان اجملك
يا زمرد واحلاك ! ما كان انقى بشرتك وانعمها ! والدم القاني
الصاعد من قلبك البتول الى وجهك الطهور ما كان ازكاه
واصفاه ! وعيناك اللوزيتان ما كان اودعهما واقدسهما !
وقبلاتك ، آه قبلاتك كم كان فيها من البلمس والسلام !

« ما كنت تلبسين الحرير ولا كانت اللائىء تثقل عنقك .
ولا كنت تنامين على سرير ناعم . الا انك في البيت كنت
ملاكاً حارساً ، وفي الحقل بتولاً مولدة مع الارض البتول
المولدة ، وكنت راضية بالحياة ، والحياة راضية بك . ما عرف
قلبك الحياة قط . كلا ، فانت لم تحوئي عهودي ، بل انخدعت
بساعة الكوكو ، فلا لوم عليك لانك ابنة حواء ، وحواء
انخدعت بجمال الثمرة المحرمة . ولا لوم عليّ ، فانا ابن آدم ،
وآدم انخدع بانخداع رفيقه . ابن انت اليوم ؟ وهل انت
راضية بالحياة والحياة راضية عنك ؟

« واليس . ها هي بزندها العاريين ، وصدرها المكشوف ،
وشعرها المجزوز ، وشقتها المحمّرتين ، وخديها المطليين بالمساحيق ،
واهدابها المسوّدة ، وعينيها الجائعتين الى المشاهد المبهجة ، ويديها
الناعمتين المرصعتين بالجواهر ، وصدرها الحاوي ، وخصرها

الضامر ، وساقبها المغلفتين بالحرير الحادع الشفاف ، ورجليها
المشدودتين بأسيار لماعة ، الواقفتين على الهواء . ها هي : حياة
مقنّعة بالموت . وقناعها في اعتقادها ان في ذلك رمز حياتها ،
رمز ما تدعوه حرية ومعرفة وتمدناً ورقياً وجمالاً وسعادة .
ها هي وقد انتقلت اليها عدوى الحركة الدائمة ، تبحث عن
سعادتها في الغبار الذي تثيره تلك الحركة - في المراقص ، في
الملاهي ، في السيارات ، في الحلي والحلى ، في التنقل مع ازياء
المعيشة الخارجية يوماً بعد يوم ، وفي الثروة عن هذه الامور ،
حتى كأنها مجبولة من زبد الحياة ولا روح فيها الا القوة الخفية
التي تسير بها من لهوة الى لهوة ، ومن علفة الى علفة ، والتي
تنزع عنها ثيابها ليلاً وتلبسها اياها نهاراً .

« أولستَ ملوماً في ذلك يا خطر ؟ لقد افلتت من يدك
زمرد ، فلست بعد مسؤولاً عنها . اما اليس فمعك ، وقد يمكنك
ان تنتشلها من الرغوة الفارقة فيها . وكيف تنتشلها وانت
غريق مثلها ؟ »

وتنهذ خطر حرقاً على زمرد وعلى اليس وعلى نفسه .
وحاول ان يفلت من افكاره فلم يقدر لانها اخذت تساوره كل
يوم بقوة جديدة حتى رأى نفسه كالماشى على الحراب وبين
الحراب وتحت الحراب . وعبثاً حاول ان يستعيد لذة العمل

في التجارة ، او لذة الانفراد بنفسه ، لان تجارته تحولت في عينيه الى اتون يحرق فيه حياته . وارباحه الى رماد تلك الحياة المحروقة . واحس كأن نفسه انفصلت عنه فم تبق النفس التي كان يأنس لمجالستها ومسامرتها . واصبح يشعر في حضرتها بوحشة مظلمة فيسعى الى الهرب منها . ومن الغريب انه في مثل هذه الاضطرابات النفسية كان يهرب الى خادمة سورية تولت ادارة بيته ايام عزوبته فابقاها عنده بعد زواجه واسمها سعدى وكانت طاعنة في السن . لكن قلبها كان طافحاً بالعطف وروحها كانت كتاباً مفتوحاً ، لان السنين التي قضتها في اميركالم تقض على شيء من جمال جوهرها الفطري ولا سلبتها شيئاً من بساطة القلب ولهفة الانوثة التي يكسبها العمر سحراً جديداً . فكانت تغار وتحن على خطر كالم لو كان ابنها . وعندما تناديه لا تناديه الا « يا ابني » . وكان خطر يعاملها كالم لو كانت امه . وعندما تشد عليه وطأة الوحدة كان يسرع الى سعدى لينضوي تحت جناحيها كالم يسرع الفرخ الى امه ليختبئ من العاصفة تحت ريشها الدافئ الناعم .

وكانت لبنة سائم فيها خطر لمشية زوجته ، ورضي ان يتناول طعام العشاء معها في نزل من نزل المدينة وان يكون رفيق اليس الاميركي ضيفهما . ورفيق اليس هذا كان من

الشبان الذين وضع الله في أفواههم ألسنة طويلة وجعل محركها في بطونهم بدلاً من رؤوسهم وقلوبهم . وما أكثر ما هم على سطح هذه الغبراء !

وفيما الثلاثة حول المائدة ، وليس ورفيقها يتحدثان عن رقصة جديدة ، اذا بالحادمة التي كانت تأتيهم بالطعام تتقدم الى خطار وتناولوه ورقة صغيرة مطوية وتقول : « هذه من السيدة الواقعة بجانب ذلك الشباك خلف الستار ! . » وأشارت الى شباك لا يراه الا من كان الى مائدة خطار .

فتح خطار الورقة وقرأ ما فيها . فامتقع لونه في الحال ، وقدحت عيناه ليس شراراً واكفهر وجهها وعض رفيقها الاميركي على شفته السفلى وقطب حاجبيه وغمز اليس غمزة ذات معنى كأنه يقول لها : لقد انفضح السر ، فهان الامر واصبح الطلاق قريباً !

غير ان خطاراً عاد فامتلك نفسه . ونهض وانطلق الى الشباك حيث السيدة بانتظاره ، وما حدثها قليلاً حتى بدت على وجهه امائر الدهشة والحيرة ، ثم مديده وصافحها ، ثمناولها من جيبه بطاقة عليها اسمه وعنوانه . ثم صافحها ثانية ، وودعها باسمماً وهي تبسم له . لكنه ما عاد الى حيث كان حتى وجد

زوجته ورفيقها واقفين وقد ارتديا ثيابهما استعداداً للذهاب ،
فادرك ان تصرفه قد اضرم نار ثورة .

عاد الثلاثة في السيارة الى البيت من غير ان يفتح احدهم
فاه في الطريق . لكنهم ما دخلوا البيت حتى تدفق من فم
اليس سيل من الشتيمة والتقريع والتأنيب : يا للفضيحة ! يا
للعار ! أعلى مرأى اناس من نخبة القوم تشعني هذا التشنيع ؟
اذا لم يكن لك بد من خيلة ايها الخائن أفلا انتقيت لك واحدة
ارفع مقاماً من خادمة في مطعم ؟ لست اطلب منك اعذاراً
ولا شروحات ، فقد انتهى الامر . وكل شيء واضح كالصبح . وهل
اكذب عيني ؟ لا حديث لك معي بعد هذه الليلة ولن يرتفع
فوق رأسينا سقف واحد بعد . اذا كان لك من حديث فليكن
مع محامٍ ! ..

وظلت اليس تحوك على هذا المنوال ورفيقها الاميركي
« يصب على يدها » مردداً بلهجة من لحقت به اهانة فظيعة :
الحق معها ، الحق معها . فمن ذا يصبر على اهانة كهذه
الاهانة ؟ انني في حياتي كلها ما تلوثت بمثل هذه القذارة !

الى ان قرع جرس الباب ودخلت المرأة التي حدثها خطار
في المطعم وقد نزعت عنها ثياب الشغل وارتدت ثياباً بسيطة
تذيع الفقر والذل . فما لمحتها اليس حتى كاد صوتها يخترق

السقف واخذت الشتائم الجارحة تتساقط من بين شفيتها تساقط
البرد من السحاب في يوم معصف .

كل ذلك وخطار واقف كأنه "قد" من صخر . وسعدى
التي هرولت لصراخ سيدتها تنظر يمينا وشمالا فلا تفهم شيئا ،
فتغمض عينيها وترسم علامة الصليب متممة : نجنا يا الله ،
نجنا يا الله !

والمرأة الغريبة جامدة كشبح من عالم آخر . وكأنها بعد
قليل من التفكير فيما سمعته ورأته ادركت ان لها علاقة
بذلك المشهد .

فتقدمت من اليس واراقت ان تقول كلمة ، فلم تعطها
اليس فرصة بل صاحت بها : ابتعدي عني ، لا تلمسيني ! ودفعتها
بعنف واخذت بيد رفيقها الاميركي ، وبأقل من لمحة الطرف
خرجت واياه من البيت الذي ارتج باطرافه عند قفلها للباب .
وكان ان المرأة الغريبة حين دفعها اليس تلك الدفعة العنيفة
هوت على سعدى الواقعة وراءها ، فهبطت الاثنتان الى الارض
وهتفت سعدى : « اي نجنا يا . . . » وكان ذلك آخر ما نطق
به لسان تلك المسكينة .

حينئذ دقت الساعة : كوكو ، كوكو ، اثنتي عشرة مرة .

فاجفل خطار وفرك عينيه كمن افاق من غيبوبة طويلة .
ولاول وهلة لم يصدق ما رآه . سعدى التي كانت له اكبر
تعزية ، سعدى التي كانت تمثل في عينيه سوريا القديمة ، ابنة
الفطرة والبداهة والبساطة غير المنقّعة ، والعاطفة الوثابة
من اعماق اعماق القلب - سعدى مطروحة على الارض
بلا حراك .

وبجانب سعدى امرأة مذعورة ، مضضعة الافكار والقوى ،
شريدة طريدة ، فقيرة حقيرة . تلك المرأة كانت وردة فواحة
في تربتها ، فعنّ لها ان وراء البحار تربة اصلح من تربتها واغنى ،
وها هي الآن في تربتها الجديدة لا لون ولا اريج ، بل اشواك
مستنة واوراق ذاوية . ولو شاءت ان تعود الى تربتها لما وجدت
الى ذلك سيلاً . لانها ام خمسة بنين ولا معين لهم سواها ،
اذ ان زوجها لا يعرف من الشغل اكثر من رفع القدح الى
شفثيه ومن عد الاوراق على مائدة القمار .

واليس ؟ مزيج غريب ، مزيج الخس ما في الشرق من ولع
بزنخرف الحياة مع ما يطفو على وجه بحر الحياة الغربية المزمجر
من رغبة وفقاقيع .

وهو - هو خطار مسعد - من هو وما شأنه من ذلك
المشهد؟ ومرت امام خطار خيالات ماضيه كما تمر البروق ، متقطعة

متكسرة ناشبة من طرف الافق الى طرفه ، فرأى نفسه في
الحقل ويده على محراثه . وامامه ثوراه الجلودان الامينان ،
وتحت رجله تربة ارضه اللدنة السخية . وفي صدره انفاسها
وانفاس اعشابها وازهارها . وفي اذنيه ترانيم العصافير المرفرفة
على افنان اشجارها .

ثم عاد فالتفت حواله فرأى الموت عن يمينه والحياة عن
يساره ، وسمع جلبة المدينة التي لا تنام . فخيّل اليه ان المدينة
برج هائل قائم على الوف الدواليب التي تكرر بسرعة ابليسية ،
وان تلك المركبة الجهنمية تنحدر من علو جبل قمته في السحاب
واركانه في هوة لا قرار لها ، وانها تسير على صدره . ورأى
الراكبين فيها يتناهشون ويتعاضضون ، مقهقين ، مولولين ،
متسابقين الى حيث لا يدرون ، جاهلين انهم سائرون الى حيث
تسير بهم المركبة لا الى حيث يرغبون .

ورأى بين هؤلاء الملايين الوفاً من ابناء بشرته وقد زجتهم
الاوهام والمطامع بين الراكبين فداست بعضهم ارجل
المتسابقين . وعلق الآخرون بدواليب المركبة فراحوا يكرون
معها سكارى وحيارى ومولولين ، يلتفتون الى الوراء ويودون
الافلات والرجوع فلا يجدون الى ذلك سبيلاً . وفي اعلى البرج

المنحدر من القمة على الوف من الدرابيب رأى خطار ساعة
هائلة . وفي اعلى الساعة طاقة يخرج منها بين الفترة والفترة
طائر ميكانيكي كبير ويصرخ بانباء البرج : « كوكو ! كوكو ! »
فيخرون على ركبهم ساجدين ويتهايمسون فيما بينهم قائلين :
« الساعة كيت وكيت . . . »

وانحنى خطار فوق سعدى والتفت الى المرأة الواقعة بجانبها ،
وبصوت تخنقه العبرات قال : « زمرد ! ساعديني . . . »
وحمل الاثنان الجثة الى غرفة محاذية .



هنا وقف محدثي وتنهد طويلاً ثم استوى جالساً وقال :
— واليوم ها أنذا يا اخي اقص عليك حكاية ساعة الكوكو .
فصدقها لان من قصها عليك هو خطار نفسه !

« ١٩٢٥ »

سنتها الجديدة

قرية يربوب مشهورة بامور كثيرة . كل من حفظ آية داود النبي ان الحمر تفرح قلب الانسان يخبرك بجودة نبيذها وعرقها . وكل صاحب معمل للحريز في لبنان ينبئك بطيبة الشرانق التي يرببها اهل تلك القرية . واذا شاء فلاح ان يشتري بقرة غزيرة الدر او ثوراً قوي العضل لا يتردد في ان يوجهه اوّل خطاه نحوها مؤمناً من كل قلبه انه سيجد فيها ما تطمح اليه نفسه . وكذلك الشاب الذي اجتاز مرحلة من العمر وادرك ان الحياة لا تفتح جراب ملذاتها ولا تصب نعمها على العازبين في هذه الدنيا وقرر في عقله ان يضم بقية سنيه الى سني احدى بنات جدته حواء ، ينهض مع الفجر قبل جيرانه واهل قريته ويتخذ نجمة الصبح دليلاً الى تلك القرية عينها . يقضي هناك ليلة او نهراً ولا يعود - الا نادراً - سوى من بعد ان يودع فؤاده عند من ستصبح « أمته » عما قريب .

ولكن النبيذ والعرق والشرانق والبقر والعرائس ليست الاسباب الوحيدة التي اذلت يربوب محلاً سامياً كهذا في اعين جاراتها . بل هناك قوة اخرى رفعتها فوق كل قريناتها . وتلك

القوة هي الشيخ بطرس الناقوس ، او كما يدعوهم اهل القرية
والجوار وموظفو المركز - الشيخ ابو ناصيف .

ورث ابو ناصيف المشيخة اباً عن جد . وشيوخ القرية
الذين ادركوا اياه من قبله في ذاك المركز اقرؤا بصوت واحد
انه يفوق المرحوم بدرجات . اولاً - ابو ناصيف كاتب قارىء
والمرحوم لم يكن يعرف من حرفة القلم سوى غمس خنصره في
المحبرة ليمسح وجهه خاتمه بالخبر ثم ليلبس الورقة بلسانه وينفخ
على الخاتم ويلصقه الى الورقة بدقة وتأنٍ فتظهر هذه الكلمات
بخط فارسي جميل : « الياس بطرس الناقوس شيخ قرية
يربوب » . كثيرون كانوا يتعجبون كيف تمكن الحفار من
ضم هذه الاسماء كلها على خاتم عادي صغير الحجم ، ولكن هذا
الامر كان من بعض الفضائل التي اكدت للمرحوم انه اعظم
واكبر من بقية من حوله .

ثانياً - المرحوم عاش ومات وهو ينام على الارض ويأكل
على صينية من القش بملقعة من خشب او بيديه . اما ابو ناصيف
فقد اقتنى سريراً و « ناموسية » وطاولة للاكل وكراسي للجلوس
الخ . واذا نزل به ضيف كريم لا يندر ان يخرج من بعض
صناديقه ملاعق وسكاكين وشوكات ، مع انه - على قول
العارفين - يؤثر ان يتبع خطة ابيه وكثيراً ما يترك الشوكة

والسكين ويعمد الى اصابعه حتى امام الضيوف . هو يفضل كذلك النوم على الارض .

ثالثاً - المرحوم عاش ومات وعلى رأسه طربوش فرنساوي لف حوله منديلاً ازرق وعلى ساقيه « شروال » من الخام المصبوغ وعلى وسطه « كمر » كان يضعه دائماً تحت مخدته عندما يسلم نفسه لاله النوم (والبعض يقول انه مات وذاك الكمر تحت مخدته) . اما ابو ناصيف فتراه يتجول بطربوش عزيزي وقنباز وزنار من حرير، و « لستيك » على الموضة . وفي الاعياد الكبيرة او عند استقبال ضيوف كبار كالقائ مقام او المدير او المطران وغيرهم لا ينذر ان تراه في بذلة افرنجية وقميص مكوي وطربوش مائل فوق جبهته يلامس حاجبه الايمن . (اخبرني من عرف ابا ناصيف جيداً انه ظهر مرة عند استقبال القائ مقام وعلى صدره ساعة ذهبية، واذا سأله سعادته عن الوقت تلعثم وانقلب لونه واجاب ان الساعة واقفة . ومن ذاك الحين لم يعد احد يرى « الكستك » الذهبي على صدره) .

هناك اشياء كثيرة يفوق بها ابو ناصيف المرحوم والده يخبركم عنها كل من سألتهم في يربوب وجوارها . لو سألتهم لعلمتم مثلاً ان ابا ناصيف له « هبة ووهرة » في المجالس وكلمة في المحكمة لم تكن لوالده ، وحيثما وقع اهل البلدة في مشكل

او مازق كانت يد ابى ناصيف هناك ، ولا يمضي كثير من الوقت حتى يزول الخلاف وتتحلّ العقدة .

وهناك مزية اخرى يفوق بها ابو ناصيف اهل قريته ، وذلك انهم عندما يبدأون بعد البيوت التي نرح بعض اعضائها الى اميركا يصلون الى بيت الشيخ ويقفون لانه هو البيت الوحيد في يربوب الذي لم يدفع بعد جزية لكرولمبوس .

الاطفال والشبان والشيخ كلهم يوقرون ابا ناصيف ويحترمون جانبه ، لكن بعض النساء الثائرات كثيراً ما يتداولن في جلساتهن السرية حديثاً ليس محموداً عن الشيخ ، إما حسداً او بغضاً . لكنهن يتناقلن الاخبار بانهن يسمعن احياناً صراخاً في بيت الشيخ ، وكثيراً ما رأين الشيخة مورثة الرأس مزرقه الوجه دامعة العينين . هناك امرأة اسمها بربارة تمس احياناً لرفيقاتها انها لما اخذت مرة للشيخ سطلا من اللبن وجدته ماسكاً بخناق الشيخة والسم يقطر من عينيه ، وشارباه يرتجفان ، والشيخة مطروحة على الارض وشعرها يستر وجهها . وربارة هذه نفسها تنقل عن الشيخ اخباراً كثيرة . منها انها وجدت الشيخة يوماً مسجونة في الاسطبل مع البقر والحيل تكاد تموت جوعاً . وانها اتتها برغيف من الخبز . ومنها ان الشيخ « كتب » للشيخة بالموت الخ الخ . ولا عجب ، فقوة النساء على اختلاق

الآخبار عظيمة .

لكن الحقيقة التي ليست مكتومة عن احد في القرية هي ان للشيخ سبع بنات . وانه لا يجب ان يسمع احداً يذكر امامه شيئاً عن بناته ، وانه يغير الحديث كلما سأله احد عن الشیخة . وانه يُطرق اذا التقى بامرأة تحمل على ذراعها طفلاً ذكراً . وانه يغص بريقه كلما قال له احد : «عقبى لفرحة عريس .» وانه نذر نصف كرمه لمار الیاس — عليه السلام — اذا جاءه صبي . واخيراً بان الشیخة حامل وستضع عما قريب .

*

عام ١٩٠٨ كعام ١٩٠٧ قبله هبط قرية يربوب تحت صفيح الرياح وولولة الاودية . والآن تنوح فوق بقاياها العاصفة وتستتره اكفان الظلمة ، والسماء تفرش فوق لحده بساطاً ابيض لتستقبل عليه عام ١٩٠٩ .

في القرية بعض انوار لا تزال تتألق من نوافذ البيوت وشقوق الابواب . هناك بعض شبان وصبيات اجتمعوا « ليحرکوا بحتہم » — بعضهم بالجوز وبعضهم باللوز وبعضهم بالفلسوس — تسمع لهم بين الآونة والاخرى قبهقة تحملها الاریاح وتدفنها في بطن الوادي .

تقدم الليل واخذت الانوار تموت الواحد تلو الآخر ، كأن روح العام القديم ابت ان تنسل من وجه العام الجديد تحت ذرة من النور وان تبسّغه وصاياها بقرية يربوب على مسمع احد ما من اهل تلك القرية . ولم تلفظ السنة القديمة آخر انفاسها وتنبثق الجديدة من جلاباب الازلية حتى كانت القرية كلها بشيوخها وفتيانها واطفالها وكلابها قد غرقت في بحر من النوم طويل .
(نوماً هنيئاً يا عزيزتي يربوب !)

هناك ضوء منفرد شحيح لا يزال يلمع في احد البيوت كأنه يحارب الموت — يهب وينطفئ . أتلك ولولة العاصفة تضرب بنوافذ ذاك البيت فتعود من هناك كأنة طويلة مؤلمة ؟ ام ذاك عواء كلب تلعب به امواج الريح فتجعله يشابه الالة ؟ ام هو صوت بشري خارج من صدر يقطعه الالم ؟

العاصفة تنوح والسماء تبكي، وفي تلك الضوضاء تسمع بين الآونة والاخرى صرخات متقطعة تخرج من نوافذ ذاك البيت حيث الضوء . تلك صرخات خارجة من صدر بشري .
صرخات استغاثة :

« يا يسوع ! .. يا عذراء ! .. يا مار الياس ! .. »

هذا هو بيت الشيخ ابي ناصيف، والمستغيث هو الشيخة التي تتمخض اما بذكر او بانثى . لا احد حولها سوى القابلة —

عجوز تناهز السبعين يظهر انها قد اتقنت مهنتها والفت كل ما يرافقها من المشاهد والفصول . لم تحدش الايام جمال وجهها الا ببعض خطوط تتجدد وتتبسط فتشف عن انفعالاتها النفسانية . ولا شك انها الآن في ارتباك عظيم لان هاته الخطوط تتجدد اكثر مما تتبسط . هي تدرك ان العام الجديد قد ابتدأ وانه اذا ولد للشيخ صبي عن يدها هذه المرة فربما لا تخرج من بيته باقل من « ذهب انكليز » وفسطان وربما تحظى ببابوج جديد . هي تنتظر هذه الفرصة من زمان وربما صلت لمار الياص ومار جرجس لاجلها اكثر مما صلى الشيخ والشيخة معاً . وهي تفضل الموت على ان تبشر ابا ناصيف للمرة الثامنة بعروس بدلاً من عريس ، وان تراه يقطب حاجبيه ويزبد ويلبظ الارض ويناولها زهراوياً^١ فقط . نعم الموت اولى .

اما الشيخ ابو ناصيف فهو في الغرفة المجاورة يذرعها ذهاباً واياباً بخطوات كبيرة ورأس قد انحنى تحت ضغط افكار تكاثفت حتى صارت في عينيه اشخاصاً حية ملأت فضاء الغرفة ولم تبقى له مجالاً للحركة . اصوات ترن في اذنيه ، واشباح تمر امام

١ قطعة من النقد التركي المتداول قبل الحرب العالمية الاولى وقيمتها نحو ستة قروش مصرية .

عينيه . اتون في رأسه ، وزوبعة في نفسه . وتلك العاصفة
الجنية ، التي تصرخ وتعمل وترقص حول البيت فترقص معها
النوافذ والأبواب ، ماذا تطلب منه وبماذا تبشره ؟ بعريس
أم بعروس ؟

الاشباح تبزم معه وتدور حوله كراقصات في عرس او
كنائحات في جنازة . وقد سدّت في وجهه المسالك وقيدت
خطواته فانتصب في وسط الغرفة كصنم تجمهرت حوله الوف
من العابدين تتألب جيوشهم كأمواج يممّ تفجرت تحته بركانات .
وهذه الامواج تركض نحوه من كل جانب .

ها قد غمرته الى صدره فأحس كأن صنين اناخ عليه بقممه
وتلاله . ها قد طوقت عنقه وضغطت عليه بكل قواها :
« بنت ؟ . . »

ضاقت انفاسه . ثقل رأسه . اظلم النور في عينيه .
هو يغرق .

— « يا يسوع ! . . »

خر ابو ناصيف على ركبتيه ورفع يديه وعينيه الى صورة
على الحائط تمثل رجلاً مصلوباً . ركدت الامواج ورجع صنين
الى مكانه وكفت الراقصات والنائحات . ماتت العاصفة

واختفت الاشباح والارواح . ابو ناصيف وحده في الغرفة
مصدق بصورة المصلوب واللصين عن جانبيه . غاب اللسان عن
بصره فهو لا يرى سوى المصلوب في الوسط والدم يسيل من
جنبه ويديه ورجليه المسرة . اختلطت الالوان والخطوط في
عينيه ، فهو لا يرى رأس المصلوب وقد انحنى تحت اكليل الشوك
ولا يديه ولا رجليه ولا الصليب ، بل نقطة الدم الخارجة من
جنبه . الصورة كلها تحولت في عينيه الى بركة من الدم . ها
وجه البركة يتجعد ومن الدم يخرج رأس صغير ازغب فيدان
فصدر فبطن فرجلان . الصورة تتحرك وتتململ . تلك ليست
صورة ثلاثة مصلوبين بل صورة طفل ذكر . ها الطفل يد يديه
الصغيرتين نحو ابي ناصيف . ها هو ينزل عن الحائط ويدرج نحوه .
هو ليس طفلاً بل شاب في اول العمر . ابو ناصيف يفتح له
ذراعيه ، ويضمه الى صدره ويقبله بحرارة لم يقبل بها بعد
مخلوق مخلوقاً . نعم . هذا هو ناصيف . هذا هو اول وآخر
آماله . هذا حلم حياته وعكاز شيخوخته وورث ثروته ومحبي
شرف عائلته . نعم . اسم بيت الناقوس لن يمحي عن وجه
الارض . وختم المشيخة لن يقع في يد غريبة . والمطران عند
زيارته قرية يربوب لن ينزل في دار غير دار بيت الناقوس .

وجاره الياس الخندقوق لن يفتخر عليه بصيانه الحمسة .

وام ناصيف ! آه . هو سيقبل رجلها كل صباح ومساء
وسيستغفر منها الف مرة في النهار عن سيئاته السابقة نحوها
وسيقسم لها بحياة ناصيف انه لن يمس شعرة من جسمها
بغضب وبغض . وسيخدمها بماء عينيه ودم قلبه وسيجعلها
زينة البلدة .

اليوم رأس السنة وعند الفجر سينتشر الخبر عن ولادة
صي للشيخ . ستأتي القرية بشيوخها واطفالها لتشاركه بالفرح .
اهلاً بهم ، فأبو ناصيف سيدع الحمر تجري انهاراً والذبايح تدوم
اسبوعاً او شهراً .

واذا كان المولود بنتاً ؟ . . .

مر هذا الفكر كسحابة سوداء في الغرفة فارتجف ابو ناصيف
بكل اعضائه واطلمت عيناه .

« يا ... مار ... الياس ! ... »

عاد النور الى قلب ابي ناصيف وانقضت الغمامة عن عينيه
فظهر ناصيف ثانية في حضرة والده . لا . لا . فمار الياس
سيجيب هذه المرة نداء قلب كسير . مار الياس الذي يعتبره
ابو ناصيف اكثر من كل القديسين فلا يحلف الا باسمه ولا

يُصلي الا في كنيسة ولا يمر عليه احد او عيد الا يضع «متليكا»
في صنيته . مار الياس الذي قدم له ابو ناصيف شمعداناً من
الفضة وايقونة مذهب . نعم . مار الياس يعرف ان الشيخ
يستحق ولداً ذكراً أكثر من كل رجل في القرية، وعلاوة على ذلك
فأبو ناصيف مستعد ان يقف له نصف كرمه اذا اجاب طلبته .
مار الياس لا ينكر الجليل .

« يا .. عذ .. را .. ! »

عادت القشعريرة الى جسم ابي ناصيف والحلاء الى قلبه
والظلمة الى عينيه . احتجب عنه ناصيف وحلت مكانه صورة
شيطانية - صورة طفلة تتململ في المهد . تلك الصورة المعلقة
على الحائط والتي تمثل امرأة حاملة طفلاً على ذراعيها بدأت
تتحرك وترتعش . ها قد انحدرت المرأة وطفلها الى الارض .
هي تنظر اليه بحنو وتقرب منه وقد تحركت شفهاها كأنها
تريد ان تحاطبه . الطفل على يدها ليس صبياً بل بنت . ماذا
تريد منه هذه المرأة وماذا تشاء ان تقول له ؟ ابو ناصيف يتميز
غيطاً منها ويده ترتفع ليفتك بها . لكنها تبسم وقد فتحت
فاها وتلك الابتسامة تريد في غيط ابي ناصيف ناراً . هو يجمع
آخر قواه ليتاسك عن ضربها . تكلمي ! تكلمي !

« بنت ! بنت ! بنت ! .. »

امتلاّت الغرفة فجأة بهذه الكلمات فأحس ابو ناصيف كأنها
انياب تنشب فيه كيفما انقلب . « بنت ! بنت ! بنت ! »
خسئت يا خائنة ! بل صبي ! صبي ! صبي ! - هب ابو ناصيف
من سجدته كملسوع واندفع الى صورة المرأة على الحائط
فأخذها ومزقها نفاقاً وطرح بها الى الارض وداسها برجليه مردداً :
« صبي ! صبي ! صبي ! »

عاد ابو ناصيف يتمشى بخطوات اوسع من الاولى ورأس
اثقل من جبل صنين ، وعادت العاصفة تتابع جنازتها حول البيت
فيخيل اليه انها تجنز آماله وتردد : « بنت ! بنت ! بنت ! »
وع . وع . وع . . .

انقبض قلب ابي ناصيف فجمد في مكانه كمن اصاب بمس .
احب ان يخطو فلم تطاوعه رجلاه ، وان يرسم الصليب على وجهه
فخائنه يده .

صبي ام بنت ؟ ينتظر الى ان تأتي القابلة فتبشره بولادة
ناصر ام يذهب هو ليستقبل وريثه وقرّة عينه ؟
واذا كان بنتاً ؟ « اخنقها ! »

برق جهنمي لمع في عيني ابي ناصيف وقوة شيطانية دفعته

من مكانه الى الغرفة المجاورة حيث الوالدة والقابلة .

« ماذا ؟ » - لسانه لم يطاوعه ليلفظ اكثر من هذه الكلمة .

قطعت الام نجباتها وحبست القابلة انفاسها ، وكأن الطفل
شاركهما بذلك فلم ينطق سوى مرة واحدة « وع » .

« ماذا ؟ » - اعاد الشيخ سؤاله بعد لحظة ظهرت له اطول
من دهر . سكينه اعرق من سكينه القبور عادت فسادت في
جوانب الغرفة فكاد الشيخ يأكل لحمه غضباً .

« بنت ؟ » - سقطت هذه الكلمة من فيه كقصفة رعد في
تلك السكينة الميتة . فذعرت القابلة وارنجفت احشاؤها .
ثم تحركت شفتاها محاولة النطق فخانتها شفتاها ولم تنبأ الا
بحرف واحد :

- ب - وانقطعت انجابها .

لمعت عينا ابي ناصيف ثانية بذاك البرق الجهنمي فانقض
بلمحة طرف على القابلة انقضاض نسر على ارنب وخطف الطفلة
من يدها وانطرح الى الباب ففتحه وركض الى الاسطبل
فاخذ من هناك رفشاً وسار تَوّاً الى غابة الصنوبر
وراء الكنيسة .

الرياح تعصف والثلج ينهمر والاشجار ترقص وابونا صيف يحفر.

✱

بزغ الفجر وبدأ اهل القرية يهتفون بعضهم بعضاً : « عاماً
سميداً . كل سنة وانتم سالمون . » اما في المقبرة وراء الكنيسة
فكانت الاشجار تندب والعاصفة تنوح والسماء تبكي بدموع
متجمدة وجرس الكنيسة ينادي : « كل عام وانتم سالمون ! »

✱

اذا رأيتم بربارة من قرية يربوب سلوها تخبركم بان القرية
لا تزال مشهورة بجودة نبيذها وعرقها وبقرها . وان الشبان
الآتين من اميركا لا يزالون يحجون اليها قبل سواها . وان ختم
المشيخة لا يزال في يد ابي ناصيف . وان الكل يقولون : « مسكين
يا ابا ناصيف ! » اذ قد ولد له صبي ميت فدفنه وحده بيده .
ولكن هي - بربارة - تخبركم سراً عن لسان القابلة التي لم
تبع بهذا السر لسواها ان المولود كان بنتاً وان الشيخ اعطى

القابلة « ذهبين انكليز » كي تضيع ان المولود كان صبيًا
جهيضاً . وان الشيخ بقي يضرب الشيخة حتى اختل صوابها
فهو لا يدعها الآن تخرج من البيت . وانه - اعني الشيخ -
من ذاك الوقت لم يطأ ارض كنيسة مار الياس ، وان البعض
يقولون انه ربما غيّر دينه وهجر يربوب الى الابد .

نعم . قرية يربوب مشهورة بأمور كثيرة !

« ١٩١٤ »

العافر

« يكلل عبدالله « عزيز » على عبدة الله « جميلة » بسم
الآب والابن والروح القدس ! »

لما فاه الحوري بولس بهذه الكلمات مساء العاشر من ايار
سنة ١٩٠٠ في قاعة فسيحة ، غنية بالرياش والزخرفة ، من دار
ابي عزيز الكرباج ، هبطت على مئات من المدعوين الى العرس
سكينة خرساء تجللها هبة سماوية . فالاطفال والاحداث ،
والعذارى والفتيان ، والكهول والشيخوخ ، كلهم حبسوا
انفاسهم كأنهم يصفون الى رفرفة اجنحة خفيّة . والحوري
بولس نفسه ، الذي ربط في حياته بوئاق الزيجة نحو الألف
من ابناء قطيعه المحفوظ من الرب ، لفظ هذه الكلمات تلك
الليلة بصوت غير صوته العادي حتى خيل لسامعيه ان الروح
القدس كان يتكلم بلسانه . ربما كان ذاك لان الحوري بولس في
كل حياته الطويلة التي قضاها خادماً للرب ادرك لأول مرة
اهمية كلامه ، وتنورت روحه فرأى الزيجة كسرّ مقدس الهي
لا كطقس كنائسي بسيط ؛ او ربما كان ان الحوري ، من يوم
اقتبل شرف الكهنوت حتى تلك الدقيقة ، لم يرفع يده ليبارك

رباط عروسين كعزيز الكرباج وجميلة البشتاوي . لكن الحضور شعروا فجأة انهم في حضرة قوة علوية ، وتحولات القاعة في اعينهم ، مع كل ما فيها من انوار الشموع الملتوية ، الراقصة ، المنتصبة نحو العلاء ، الى هيكل طاهر يتم فيه سر مقدس عميق . لذاك توشحوا بالسكوت والورع .

لا شك في ان منظر العروسين كان مما زاد المشهد هيبَةً وجلالاً . فعزيز الكرباج ، وحيد ابيه وامه ، كان اجمل شاب في كل البلدة وجوارها ، بل في كل لبنان اذا صدقنا ما قاله عنه الكثيرون ان « الله خلقه ورفع يده » : طويل القامة ، ممتلئ الجسم ، ابيض البشرة ، مستدير الوجه ، يسقي بياضه دم الشباب . في عينيه تضحك الحياة وفي شاربيه الصغيرين تتجلى قوة الاعتماد على النفس والثقة بالذات والفخر بما فعله وسيفعله بعد في هذا العالم . هجر والديه لما كان له من العمر ١٨ سنة . جاء اميركا فافلح في التجارة وجمع من الثروة نحو ٥٠٠٠ دولار في مدة قصيرة . ووجد في اثناء ذلك وقتاً ليصرفه على تثقيف ذاته ، فدرس وتعلّم وحصل ما لا يحصه الوف من المهاجرين اللبنانيين والسوريين في عشرات من السنين . ثم لبى دعوة والديه فعاد الى لبنان وبني داراً فخمة — احسن دار في كل البلدة — وفتح تجارة جديدة . كل ذلك وهو لم يتخط

الخامسة والعشرين من سنه . وكان اهل البلدة يتحدثون
باجتهاده وعقله ولينه ودماثة اخلاقه . فهو لا يشتم ولا يلعن .
لا يسب الدين ، لا يسكر ، لا يلعب بالقمار ولا يدخن . يدعو
كل شيخ في البلدة « جدي » وكل عجوز « ستي » وكل كهل
« عمي » أو « خالي » وكل كهلة « عمتي » أو « خالتي » وكل شاب
« أخي » وكل فتاة « أختي » . يحبي الطفل ويحيي الشيخ قبل
ان يبادراه بالتحية ، ويرفع قبعته عن رأسه باعتبار واجلال
عندما يحبي النساء .

وكم من الشبان الحاضرين حسدوا عزيز الكرباج في اعماق
قلوبهم وتمنوا لو كانوا في ثيابه تلك الليلة ! والبعض ينقلون عن
لسان الحوري بولس ان هذا الشيخ الجليل المحترم اعترف بانه
في خمسين سنة قضاها في خدمة الكنيسة لم يشته مرة واحدة ان
يبدل حلله الكهنوتية بكل ثروة العالم . لكنه لما امر العروسين
— عزيز الكرباج وجميلة البشتاوي — ان يتبادلا قبلة المحبة
تمنى في تلك الدقيقة لو كان في ثياب العريس !

اما جميلة البشتاوي ، فعدا جماها الساحر ، كانت تتحلى
بصفات قلماً اجتمعت بفتاة في كل ذاك الجوار او سواه . اذا
دار عنها الحديث في اي مجلس كان — سواء مجلس نساء ام

رجال ، او مجلس رجال ونساء معاً - فاول ما تتناوله الألسن
حسنها الرائع ، ثم ينتقل المتحدثون الى طباعها وعلمها وثروتها .
يقول واحد انها ملاك - الارض لا تشعر بها - فيزيد الآخر
انها « عالمة » ويعني انها اننت مدرسة داخلية للبنات
« وأخذت الشهادة » .

ويتابع الثالث فيقول انها وحيدة وان أباه قد ترك لها بعد
وفاته ارزاقاً واسعة و « صندوقاً » من المال . ويضيف الرابع
انها ستوث ارزاق عمها لأنها وريثته الوحيدة . لذلك فلا عجب
اذا ظل زفافها الى عزيز الكرباج موضوع جلسات الرجال
والنساء في البلدة مدة اسبوع على الاقل .



مضت الاشهر الاولى من حياة جميلة الزوجية كيوم من
ايام الربيع لم ترَ سماءه غيمة على الاطلاق ، وهواؤه واشجاره
وازهاره واعشابه وانهاره ودباباته وحشراتة كلها ثملى بخمرة
الحياة ولذة التجدد كأنها في مهرجان عظيم ؛ وجميلة كانت في
بيتها الجديد - بين حميها ابي عزيز وحماتها ام عزيز وشريك
حياتها عزيز - محور حياتهم اليومية ، حولها تدور افكارهم
وبها تناط آمالهم . لاجلها يتعبون ولاجلها يعيشون . اذا

ضحكت ضحكوا ، وان عبست عبسوا ، كأنها ينبوع حياتهم
ومصدر كل افراحهم واتراحهم .

لما انتهت مدة التهانى بعد العرس اقترحت ام عزيز على
ابنها ان يأخذ زوجته الى بيروت او الشام « تغييراً للهواء » ،
فصادف هذا الاقتراح استحسان الجميع وزار الزوجان الشام
وزحلة وبيروت ، وعندما رجعا هرعت ام عزيز الى جميلة تعانقها
وتقبلها وتضمها الى صدرها صارخة بلهفة : « حبيبتي . اطالت
الغيبة ! حبيبتي ، احترق قلبي بلاك ! » ثم القت نظرة على يدي
كنتها فرأت بعض خواتم جديدة على اصابعها وسوارات ذهبية
على معصمها وساعة جديدة معلقة بسلسلة ثينة على صدرها ،
فكادت تطير فرحاً .

اما عزيز فكان حبه لزوجته في خلال الاشهر الاولى يتجدد
كل يوم . فكل يوم كان عنده عرساً . عندما يذهب صباحاً
الى مخزنه يتزود قبلة منها ، واذا يعود عند المساء يجدها بانتظاره
في الباب فيأخذها بين ذراعيه ويضمها الى صدره منحنيّاً فوق
وجهها ثم يسألها مقبلاً شفتيها الورديتين : « كيف حال
قرقورتي اليوم ؟ » فتجيبه والسعادة تضيء في عينيها

١ « القرقور » في لغة اللبنانيين هو حمل الناة . والقرقورة اثاء .

منعكسة في كل عضلة من عضلات وجهها : « كيف حال
قرقوري اليوم ؟ »

« القرقورة » و « القرقور » اصبحا في قاموس حياتهما
اليومية اسمي علم حلاً محل « جميلة » و « عزيز » واحبت جميلة
اسمها الجديد حتى كادت تنسى اسمها الاصيل . وكذلك عزيز .
وكلاهما كان يكره الزائرين ليس لسبب مادي او تقاعداً عن
القيام بواجبات الضيافة الشرقية بل لان الزائرين كانوا يأخذون
قسماً من وقتها الثمين الذي كانا يرغبان ان يصرفاه معاً .
وبالاخص لانهما في حضرة الغرباء كانا يضطران ان يرجعا الى
« عزيز » و « جميلة » بدلاً من القرقور والقرقورة .

جميلة كانت تكره الزائرين لسبب آخر لم تطلع زوجها
عليه . وذاك لأن كل زائر كان يعد من واجبات اللياقة واللفظ
ان يقول لها كلما قدمت له لفافة من التبغ او فنجاناً من القهوة
او نارجيلة او نحو ذلك : « ان شاء الله نفرح لك بعريس . »
فكانت هذه الطلبات والتمنيات الدائمة كقطرات سم في كأس
سعادتها الطافحة . حب عزيز وقرب عزيز وقبلات عزيز هذه
هي سعادتها وكمال حياتها . فلماذا كل هذه التمنيات كأن
حياتها ليست كاملة بدون « عريس » ؟

مرة ، بعدما انصرف الضيوف واختلت مع جميل في

مخدعها تقدمت اليه بلطف واخذت طرف شاربه الايسر بيدها اليمنى لتقبله ثم قالت :

— اسمع يا قرقور ! الا تتضجر من كثرة تمنيات هؤلاء الناس البلاء « من فرحة عريس » يرمونك بها اينما صادفوك ، وفي كل الاحوال ، ومهما كان موضوع الحديث ؟ قد بدأت انفر منها حتى صرت اكره معاشره الناس لاجلها !

طرحت هذا السؤال على زوجها وهي متأكدة انه سيجيبها بانه يكره تلك التمنيات مثلها او اكثر . وانه يتحملها لان لا سلطة له فوق الغير ليلجم السنهم . وشد ما كان عجبها عندما سمعت جوابه :

— هل نشتم الناس يا « قرقورة » اذا كانوا يتمنون لنا السعادة ؟ ان هذا الجواب اكد الجميلة ان متابعة الحديث في هذا الباب ربما كشفت لها الستر عن اول تناقض في الافكار والمعتقدات بينها وبين عزيز . وهي كانت تثق بكل وجودها ، حتى تلك الدقيقة ، ان حياتها مع عزيز ستدوم كما كانت الى تلك الليلة ، ربيعاً دائماً لا يعكرها اقل اختلاف في الميول والاذواق والآراء والمعتقدات . لذاك كانت تخاف ان تجد ولو نقطة صغيرة لا يتفق فيها ذوقها مع ذوق زوجها .

عندما همّ عزيز ان يشتري لها حلاها في بيروت تمنعت كل
التمنع لأنها - كما قالت حينئذ - لم تشأ ان تكون « حمارة
مشتملة بالذهب » ولأنها تعد التجلي بالذهب والألماس عاراً على امرأة
لها من جمالها وطباعها وحب زوجها ما يكفيها حلية مدى حياتها.
لكن عزيزاً اصر على عزمه واسكتها بقوله ان حجبها هي
« حجة الفقراء » وان الأفضل ان تلبس لكل حالة لبوسها ،
وان مقامها في الهيئة الاجتماعية يحتم عليها ان تلبس حلى ذهبية
والماسية ، فاذنعت لارادته لا لأنها اقتنعت بقوة برهانه ، بل لأنها
قررت في عقلها ان سعادة الزوجين تطلب اتفاقاً تاماً في
الاذواق ، ولأجل تلك السعادة اخضعت ذوقها لذوق زوجها.
ولذاك خشيت الآن من متابعة الحديث خوفاً من ان تصل الى
حيث لا تشتهي. لكن طبيعتها النسائية ، تلك الطبيعة نفسها
التي حملت جدتها حواء على الأكل من الثمرة المحرمة ، دفعتها
الآن الى متابعة الحديث الذي فتحته فجأة وما كانت تظنه على
شيء من الأهمية :

— أولسنا سعيدين بلا « عريس » ؟ وهل سعادتنا لا
تكمل بغير اولاد ؟

قالت ذلك وطرف شارب زوجها لا يزال بين اصابعها
تلعب به وعيناها محدقتان بعينه كأنها تقرأ فيها ما أحدث

سؤالها في قلبه .

— لماذا هذه الاسئلة يا قرقورة ؟ .. ولكن لو رزقنا الله
« عريساً » ، كما يتمنى لنا هؤلاء القوم الذين تتضجرين منهم ،
أفلا تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا ؟

لم تسمع جميلة هذا الجواب حتى ارتخت اصابع يدها اليمنى
فسقط من بينها شارب زوجها وحولت نظرها الى الارض .
اذن سعادة عزيز مجبها ليست كاملة . اذن حبه لها لم يبلغ حده
بعد . ولا يزال قابلاً للزيادة والتضاعف . ولماذا قد امتد
حبها له واتسع حتى غمر كل حياتها كموجة جارفة فأصبح
عزيز في حياتها الكل بالكل ؟ لماذا لا تطلب زيادة سعادة ولا
تسأل ربها الا ان يبقى لها ما تملكه الآن ؟ هي لا تبغض
البنين ، كلا بل تشتهي من كل قلبها ان تصبح أمّاً . لكن
هذه الشهوة — سواء تحققت ام لم تتحقق — لا تريد ولا تقلل
من سعادتها ما دام حب عزيز يدفئها ويدور مع دم قلبها الى
كل اعضاء جسمها . فلماذا يتكلم عزيز عن « كمال السعادة »
و « تضاعف الحب » ؟ ..

دارت هذه الافكار في رأس جميلة باقل من طرفة عين ،
فوجدت نفسها مدفوعة الى ان تسبر غور زوجها الى النهاية .

فعادت ورفعت عينيها الى وجهه محاولة ان تعيد اليهما كل اللطف والحنو والاستسلام التي كانت فيهما قبلاً ، وقالت آخذه بيد زوجها اليمنى :

— اعذرني يا قرقور على هذه الاسئلة البليدة ولكن ...
ولكن لنفرض ...

قالت ذلك ووقفت كأنها خافت ان تفوه ببقية الكلمات التي كانت تدور على طرف لسانها .
— لنفرض ماذا ؟

— لنفرض ... لنفرض ان الله لم يرزقنا ... ان الله بخل علينا « بعريس » او « بعروس » ... فهل ... يضعف حبك نحوي حينئذ وهل تعد سعادتك ناقصة ؟

— لله ما اكثر اسئلتك الليلة ! قلت لك انه اذا من الله علينا « بعريس » تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا . واذا ... واذا لم يشأ الله ان يهبنا ذرية . . . (هنا بلع عزيز بريقه كأن قد اصابته غصة) واذا لم يشأ الله ان يهبنا ذرية . . . ف . . . فماذا تقدر ان تفعل ؟ لا يبقى لنا الا ان نخضع لارادته .
دعينا من هذا الحديث فهو بلا جدوى وتعالى لننام !

اخذ عزيز بيد زوجته وامالها الى صدره ، ولاول مرة بعد

ا كليهما قبلها ولم يشعر بحرارة تتسرب من جسمها الى جسمه ،
ولا احسّ دقات قلبها على صدره وبرودة انفاسها على وجهه .

*

اما ام عزيز فلم يبقَ لها غاية في الدنيا سوى الملاحظة
والسهر على راحة كنتها . وذاك ، في عرفها ، ينحصر في ان لا
تدع جميلة تقوم بشيء من اشغال البيت ، لذلك لما تغيبت ذات
يوم عن البيت نحو ساعة او ساعتين ورجعت فوجدت كنتها في
ساحة الدار والمكنسة في يدها كادت تغيب عن صوابها : « ويحي !
ويحي ! ليتني ما كنت ! ليتني تحت التراب ! أمثلك تكنس ؟
يدان كيديك لا يليق بهما الا الذهب والأطالس والحرير .
هاتي . هاتي . هاتي وروحي ننشي لك عن كتب تقرأينه ! »
عَبثًا حاولت جميلة ان تبرهن لحمايتها ان لا عيب في شغل البيت ،
وانها لا تتعب من التكنيس ، وانها قد ضجرت من الجلوس
والقراءة ، ولذلك تطلب حركة جسدية . تلك البراهين قد تقنع
ابا عزيز ، لكن ام عزيز قد شربت من ينبوع فلسفة غير تلك
الفلسفة . وفلسفتها ان « بنات الاكابر » يجب ان لا يعملن
عملًا على الاطلاق سوى الأكل والشرب والتأنق في اللباس .
والا فماذا يقول عنهن العالم ؟

لما رجع عزيز تلك الليلة واستقبلته جميلة حسب عاداتها هرولت نحوه امه وأخذت تشكو له بصوت ربهه مزاح وثلاثة ارباعه جد ما رأته من «الفرقورة» في ذلك النهار من محاولتها ان تنظف البيت . فرافق عزيز امه على كل ما قالته من ان الكناسة ومسح الغبار وغسل الصحون وما شابه ليس « من خرج بنات الاوادم » وأخذوا عهداً للجال على جميلة - قسراً عن ارادتها - ان لا تعود لمثل تلك الاشغال .

وفي اليوم الثاني ذهب واستأجر خادمة اجابة لالحاح امه وطبقاً لرأيه الخاص . ولكي يكون لجميلة ما تقضي به ساعات فراغها الطويلة كان يأتيها من مدة الى مدة برواية او مجلة او جريدة . وجميلة كانت تطالع كل رواية يأتيها بها زوجها . لكنها لم تكن تكف بانطالعة بل كانت تشعر ان قوى الشباب فيها تطلب شغلاً جسدياً مع الشغل العقلي فتأسف ان ترى ذاتها محرومة من تلك اللذة ارضاء لحاطر زوجها وامه وابيه .

لكن هذا الفراغ في حياتها لم يكن ليقلق راحتها العقلية والنفسانية لولا انه أخذ يتسع مع الايام حتى لم تعد قادرة ان لا تراه ، لا سيما لما بدأت تشعر ببرودة من زوجها في علاقتها معه .

مر عام وتلاه الثاني بعد زواجهما ، وكل يوم جديد كان
يؤكد الجميلة ان هاوية فغرت فاها بينها وبين عزيز . هو لم
يزل يناديا « قرقورة » وهي لا تزال تناديه « قرقور »
وتستقبله كل مساء في الباب او عند اسفل الدرج خارجاً .
لكن ذاك الحنو في صوته وتلك اللفظة في عينيه تبخر اكد موع
الندى عن وجنات الازهار بعد طلوع الشمس . ولم يبق من
اثر لتلك الابتسامة اللطيفة ، ابتسامة العاشق ، على وجهه
الجميل . ووجهه لم يعد كالسابق مرآة مصقولة تشف عن كل
حركات روحه وقلبه بل اصبح الآن وجه بحر رائق تمثل الحياة
تحت مشاهد خفية لا تراها العين ولا تسمعها الأذن . وذاك
النور الالهي في عينيه الذي كان يملأ قلبها بألذ ألحان السعادة
والحب قد انطفأ الآن وحل محله فكر اسود عميق تهب منه
نسمات باردة على روح جميلة التي كانت لا تزال تعشق
بكل قواها .

ان هذا الانقلاب الغريب لم يأت فجأة بل بالتدريج .
وجميلة بدأت تلاحظه بعد مرور السنة الاولى لاقتراحها .
والآن تراه يزداد يوماً عن يوم . قلبها يتوجع وهي لا تظهر
الوجع على وجهها خوفاً من ان تبخر من روحها آخر قطرة

من السعادة التي لا تزال تطلبها نفسها وكل وجدانها . يخيل اليها
احياناً ان ما طرأ على حياتها لم يكن سوى غمامة مرت
بسماء سعادتهما وستنشق عن قريب . لا سيما عندما تسأل نفسها
عن اسباب التغير الذي حدث في علاقات زوجها معها فلا
تجدها . وهي لا تزال تحبه كالسابق ان لم يكن اكثر .
شفقتها لا تزالان تشاقان شفتيه وصدرها صدره . هي لا تزال
تنتظر رجوعه كل مساء بفروغ صبر وتقف في الباب وعيناها
محدثان في جهة واحدة ، الجهة التي سيأتي منها . وبالاختصار
فعزيز لا يزال « قرقورها » فماذا طرأ على عزيز ؟

بقي هذا السؤال يعذب جميلة نهائياً بعد نهار وليلاً بعد
ليل ، الى ان سمعت مرة مصادفة هذه المحاوراة الوجيزة بين
حماتها وعزيز :

— يا ابني . الى متى الصبر ؟ انظر الى امرأتك ودبرها !
— وكيف ادبرها ؟ هل انا رب لاخلق اولاداً ؟
— ويلاه ! أهكذا يفعل الناس ؟ خذها الى بيروت .
خذها الى الشام او دعني انا ادبرها . أهكذا ينقطع نسلنا ونحن
مكتوفو الايدي ؟

— بالله يا امي اتركيني بحالي . فما بقلبي يكفيني . اعلمي ما
بدا لك ! . .

هذا الحديث القصير بين ام عزيز وعزيز فسر لجميلة كل ما كانت تتوق نفسها المتألمة الى معرفته من زمان . لكن معرفتها السر لم تخفف من آلامها بل زادت قلبها انقباضاً ونفسها اوجاعاً . وما العمل ؟ هي تحب عزيزاً ولا تتأخر لحظة ان تموت لأجله ، وليس في العالم ما يشق عليها ان تضحيه لاجل ارجاع حبه اليها . لكن عزيزاً يطلب ثمن حبه ما ليس في وسعها ولا في وسع العالم كله تقديمه . فهو يطلب منها اولاداً ، وما ذنبها اذا كانت عاقراً ؟ هي لم تعد تبالي بالآلام النفسانية التي يسببها ادراكها ان ما كانت تحشاه قد أصبح الآن حقيقة لا تدحض ، وذلك ان سعادة عزيز معها لم تكن تامة بدون « عريس » وان حب عزيز لها كان حباً جزئياً لا كاملاً .

كل افكارها تحولت الى نقطة واحدة وهي : هل من سبيل الى تجديد نار الحب في قلب عزيز ؟ . السبيل الوحيد ولادة البنين . وحماتها نوهت عن بيروت والشام . فماذا ترى كانت تعني بذلك ؟ هل في بيروت او الشام اطباء يقدرون ان يجعلوا العاقر تحمل وتلد ؟ حماتها وعدت ان تأخذ هذا الأمر على عاتقها ، وهي امرأة مخنكة مجربة ، أفليس الافضل ان تعمل بكل ما تقوله حماتها ؟

لكنها لم تسمي الى احد في هذا العالم ، فلماذا اساء اليها العالم ؟ حبها لعزير لم تزده الايام إلا ناراً فلماذا خمدت نار حب عزير نحوها ؟ هي راضية به بدون اولاد ، فلماذا لا يرضى هو كذلك بها ؟ أليس هو المسمي اليها ، فلماذا تسعى لتكفّر عن اساءته ؟ اليس الأفضل ان تجازيه بالمثل وتقابله على البرودة بالبرودة ؟ اليس الأفضل ان تنتهر قلبها ليستكن وان تطفئ بالدموع لواعج حبها وآلامها ؟ لكن ، ربما ! . . ربما كان في وعد حمايتها بعض الأمل . فلماذا لا تتبع بارقة ذاك الأمل ؟

بقيت جميلة مدة تتورد بين الشك والعزم . دموعها تهم بالانهمار فتحبسها . وقلبها يكاد ينفجر في صدرها كقنبلة رشاشة ، فتقول له : « على مهلك يا قلب ! . . »

✱

أصرت ام عزير على رأيها هذه المرة وفازت . وعزير لم يعارضها . وتمنعات جميلة لم تكن لتقف في طريقها . وهكذا امرت كتبها يوماً من الايام ان تعد كل لوازم السفر ، وفي الغد « نزلت » معها الى بيروت بعد ان اعلنت للجيران انها ذاهبة « لتشمم كتبها الهواء » لان كتبها « واولداه محصورة ! » وبعد غيبة اسبوع عادت الاثنتان من سياحتهما ، وعادت

جميلة ترافب موت حبها التدريجي شاعرة انها تموت معه موتاً بطيئاً ، موتاً روحياً .

ان بيروت لم تخفف آلامها الجسدية والنفسانية . ومعاملة عزيز لها كانت تزداد خشونة لا سيما بعد ان مر عام على زيارتها لبيروت . واذا كان عزيز قبل تلك الزيارة يقبلها قبلات ناشفة ويدعوها قرقورتي ولو نادراً فالآن لم يعد يقبلها على الاطلاق ، وعاد يدعوها « جميلة » ، وقلمما يناديها حتى باسمها . وتمتتم فجأة تدخين النارجيلة فصار عندما يعود الى البيت يجلس مساءه مع نارجيلته بدلاً من « قرقورته » لا يحدث احداً ولا يجسر احد ان يحدثه الا اذا جاء ضيوف فيقابلهم بلطفه العادي كأن لم يطرأ عليه تغيير البتة . وعند الساعة التاسعة تقريباً يذهب الى غرفة منامه ويقفل الباب وراءه .

أخذت جميلة تذوب كالشمعة . ولم يكن لها أحد في العالم كله تكشف أمامه روحها سوى امها . ولكن ، ماذا تفهم امها ؟ اذا حدثتها عن المأساة التي كانت تمثلها الأيام في قلبها تنهد وتبكي ولا تفهم ماذا تقوله ابنتها .

امها كأم عزيز تنظر الى عقر ابنتها نظرها الى قصاص صارم من السماء ، الى فادحة عظيمة ، الى عيب كبير لا يمحي بين

الناس . تنظر الى قرينات جميلة فتراهن يغذين باثديتهن صبياناً
وبنات فتحنقها الغصة اذ تفكر ان ابنتها التي كانت « زينة »
بنات البلدة ، ابنتها التي تحدث الغريب والقريب بجمالها وآدابها ،
ابنتها التي تقاطر لطلب يدها الشبان من كل جهات لبنان ،
تمشي الآن ولا لبن في ثدييها ولا طفل على ذراعيها .
لذاك بدلاً من ان تجد جميلة تعزية عند امها كانت تضطر
ان تعزيها .

لم تكتفِ ام عزيز بسباحتها الى بيروت بل اجبرت كتبها ،
بعد مرور عام ، ان ترافقها الى الشام ، واعلنت هذه المرة
كذلك انها ذاهبة « لتشم كتبها الهواء » لان كتبها
« واولداه محصورة ! » لكن اطباء الشام واطباء زحلة لم
يفعلوا ما قصر عن فعله اطباء بيروت ، حينئذ لعنت ام عزيز
في قلبها الطب والأطباء وعولت ان تستعين « بالمغاربة » ،
فصارت لا تسمع عن مغربي زار البلدة الا دعتسه الى بيتها
وشرحت له حكاية كتبها ، حتى تحول بيت الكرباج الى نزل
يوئمه كل من رفع صوته في تلك البلدة ونادى : « حكيم ،
طبيب ، دوا للعبة ، دوا لاعين ! » ولم يطل ان تحققت ام
عزيز ان حذافة المغاربة كذلك لم تجدها نفعاً . فما العمل ؟
بقي باب لم تطرقه ام عزيز وقد تركته وسيلةً أخيرةً

تلجأ اليها اذا ضاقت بها كل الوسائل . ذاك زيارة الاديرة ،
« عليها السلام » . فراحت تنتقل بكنتها من دير الى دير . . .
وجميلة في يدها كآلة خرساء تديرها كيفما شاءت .

في بدء الامر كانت جميلة تتمتع عن هذه الزيارات ،
لكنها تحققت بالامتحان ان لا نفع من تمنعها ولذلك استسلمت
لارادة حماتها وقد فقدت ارادتها تماماً مع فقد حب زوجها .
فالحياة اصبحت عبئاً ثقيلاً عليها لم تكن تجد واسطة
للتخلص منه .

مضى على زواجها نحو عشرة اعوام فادركت ان السعادة
التي سكرت بها في الأشهر الأولى قد ذهبت ولا أمل برجوعها .
عزيز لا يكاد يكلمها على الاطلاق ، حتى ولا ينظر اليها .
يقضي اكثر لياليه في السوق ويرجع بين المرة والأخرى احمر
العينين مع ازرقاق تحتها . تتصاعد من فمه روائح العرق
والنيبذ والجمعة . اسنانه اكدت بغطاء اصفر كثيف . لون
وجهه انقلب من الوردي الى الرمادي . طرفا شاربيه هبطا الى
اسفل . لحيته لا ترى الموصى احياناً في اسبوع .

وعندما يرجع عزيز الى البيت يتحول البيت الى مقبرة لا
حركة ولا حياة فيها . لا يجسر أحد أن ينبس ببنت شفة .

واذا حدث وقال او فعل أحد ما ليس على خاطره - سواء كان ذاك أباه أو امه - يبدأ بشتائم الدين وتكسير كل ما تصل اليه يده من فرش وآنية . ومرة ضرب زوجته لانها رفضت ان تذهب الى الكنيسة وتلبس كل مجوهراتها .

كانت جميلة تراقب كل ذلك وقلبها يتفطر . وابو عزيز وام عزيز ينظران اليها كأنها سبب تعاسة وحيدهما ، لذلك أبغضاها . وكم سمعتهما يتحدثان هكذا :

- ولدي ، تقول ام عزيز ، لقد ذاب من قهره . لا الله يطعمها ولا عزرائيل يقذفها عنه . لو ماتت لتزوج من بنت حلال سواها تأتبه بولد يعزي آخرتنا وآخرته !

فذاك الحنو الذي كانت تلاقيه جميلة من حماتها لم يبق له من أثر : اذا رأتها الآن تكنس وتغسل وتطبخ لا تصيح كالسابق : ويلى ، ويلى ! ليتك تقبرين حماتك ان شاء الله !

الخادمة التي كانت استأجرتها لخدمة جميلة عادت الى بيتها من زمان . جميلة تشتغل اليوم كثور في البيت وخارج البيت . واذا جلست لتستريح تسمع للحال صوت حماتها : رجعنا نقعد ؟ ما هذا الوقت وقت قعود !

الكل يشاركون عزيزاً في مصابه وبلواه وقلّ من في قلبه
بعض الشفقة نحو جميلة . اذا خرجت من بيتها تخرج كل امّ
في البلدة تحمل رضيعاً حتى اذا اقتربت من جميلة خاطبت
طفلها هكذا : فؤاد ! - أو بطرس أو حنا - صفق لخالتك
جميلة يا ابني صفق ! . . . لتلحدني هاتان اليدان الحلوتان
بجاء رب السماء ! . . .

كل ذلك لتسمع جميلة ويدمى قلبها المجروح . وجميلة
كانت تسمع ساكنة وتبكي ساكنة وتتمرمر نفسها من الحياة
والعالم ساكنة . اذا مشت شعرت كأنها تمشي فوق اشلاء آمالها
التي جندلتها الأيام من حولها ، وان نامت كأنها نائمة على
انقراض سعادتها المتهدمة . ماذا بقي لها في هذه الدنيا
ولماذا تعيش ؟

ولكن هل ذوت كل آمالها على الاطلاق ؟

اذن لماذا لا تزال تقول : « ربما ! ربما من الله
علي ! . . . » لو من الله عليها ترى هل تعود اليها تلك
السعادة المفقودة ؟

عَبثاً حاولت جميلة أن تجيب على هذه الاسئلة لأنها أصبحت
غريبة عن نفسها . فالظلمة التي اكتنفت روحها لم تبق لها منفذاً

لدرس خفاياها واسرارها ، لذلك تعذر عليها أن تعطي حساباً
لنفسها عن نفسها ، فوجدت الاستسلام للأيام اسهل طريق
تسلكه ، ولذلك لم تعارض ارادة حمايتها لما اعلنت لها يوماً
عن عزمها ان تذهب بها لزيارة دير قديم باسم العذراء تلجج
النساء بعجائبه .

من قال ان زمان العجائب قد مرّ فليذهب الى بلدة ع .
من اعمال لبنان ويسأل عما جرى سنة ١٩١٠ . امرأة بقيت
عاقراً عشر سنوات ، لم ينفعها علم الأطباء ، ولا ساعدها
عقاقير المغاربة ، ولا شفتها اديرة كثيرة . لكن السيدة
- المجد لاسمها - سمعت صلاة ام عزيز الكرباج الحارة .

نعم ، لم تحب طلبات ام عزيز . فقد حملت جميلة في
تلك السنة ، وما اسرع الانقلاب الذي حدث في البيت حالاً بل
في كل البلدة ! فعزیز عاد يناديها « قرقورتي » مع ان جميلة لم
تعد تحب سماع هذا الاسم الذي كان يمزق قلبها كخنجر حاد
ولم تعد تنادي زوجها « قرقوري » .

وصار عزيز يرجع الى البيت مساء وفي يديه وجيوبه جميع
انواع المأكولات الطيبة والهدايا الثمينة . الخادمة كذلك رجعت
الى بيت الكرباج . وام عزيز عادت تهتف كلما رأت كتبها

تمسح الغبار عن كرسي او تحرك الطبخ في قدر : « ويلي ،
ويلي ! تقبري حماتك ان شاء الله ! » وعاد ملاك السلام الى بيت
الكرباج . فترك عزيز السكر واكتفى بالنارجيلة فقط . وعادت
الابتسامة الى وجهه ورجع نور السعادة الى عينيه . واما تقابل
تهاني أهل البلدة بقلب طافح بالفرح وتذكر كلاً منهم بان
لا فضل لها في ما جرى قائلة :

— السيدة ، المجد لاسمها !

لم يلاحظ عزيز من شدة فرحه الانقلاب العجيب الذي حدث
في زوجته . لم يلاحظ ان تلك الابتسامة الملائكية التي كانت
تتلأأ على وجهها الوردي فيما سبق قد غابت الآن الى الأبد
تاركة مكانها علامة سؤال مبهم . لم يرَ ان تلك القوة
الكهربائية التي كانت تنسرب من عينيها الضاحكتين الى اعماق
قلبه فتملأه غبطة سماوية قد اختفت الآن وراء تلك الأهداب
الطويلة التي تظهر كل دقيقة كأنها تستعد للبكاء والندب . لم
يشعر بنعمة جديدة في صوتها ، نعمة حزن عميق لا أول له ولا
آخر . لم يرَ اصفرار وجهها ولا تقطب حاجبيها الدائم الذي
ينم عن اوجاعها النفسانية . واذا رأى بعض ذلك كان يحسبه
طبيعياً في حالة الحمل .

اما جميلة فكانت كأنها انسحبت من العالم الخارجي الى داخل نفسها كما تنسحب البزاقة الى صدفها . وهناك انفردت نفسها بنفسها لأول مرة في حياتها ، فاعتراها رعب عندما أخذت تحلل ذاتها بذاتها وترفع الستار رويداً رويداً عن اشياء داخلية كانت تشعر بها ولا تعرف معناها . لأول مرة في حياتها سألت نفسها ما عسى ان يعني كل هذا : صباها وشبابها وزواجها وظماً روحها الدائم ، وسعادة لم تكد تلمسها حتى تقلصت من بين يديها واختفت الى الأبد ؟ وأنين قلبها الذي لا يبطل ، كأن حية تقرض اوصاله . وسياحاتها الى بيروت والشام وزحلة ، وزيارة الأديرة والنذور للقديسين وتقديم الصلوات ؟ ما عسى أن يعني كل ذلك ؟ أهذه هي الحياة ؟ وان كانت تلك هي الحياة فما غايتها منها ؟ أن تحمل وتلد عريساً لترضي زوجها وأهل زوجها ؟ هي الآن حامل فلماذا لا تقنع ، ولكن كيف حملت ؟ . .

تصل جميلة في افكارها الى هذا الحد ثم تعود الى حيث بدأت .

كيفما انقلبت تشعر كأنها ماشية في دائرة مسحورة من الأفكار التي تتبعها كأشباح آمال ميتة . وكم حاولت ان تغفل

من تلك الدائرة ولم تقدر . كم حاولت أن تتخلص من نفسها وترجع لتنعس برأسها في بحر الحياة الواسع ، في حب زوجها وامها وملاطفة حماتها وحميها ، لكن بدون جدوى . قبلات زوجها أصبحت سماً يتفشى في كل جسدها ، وملاطفة حماتها حراًباً تقطع شرايين قلبها . ادركت انها قد أصبحت كورقة قطعتها الرياح من شجرة وحملتها الى محلات غريبة قصية . ادركت انها غريبة في بيت زوجها وبيت أمها وكل بلدتها بل في العالم كله . وهذه الغربة الروحية كانت تضغط على وجدانها كل دقيقة وكل ثانية حتى سئمت الحياة وسئمت العالم .

*

كان العاشر من شهر ايار سنة ١٩١١ يوماً من تلك الايام الربيعية في لبنان التي يعرفها من عاش في الاماكن المرتفعة من ذاك الجبل ، والتي لم يظهر الى الآن قلم استطاع أن يفيها حقها من الوصف .

كانت الشمس تتخطر على مهلها نحو المتوسط لما عاد عزيز الكرياج من شغله الى البيت ولم يجد زوجته جالسة على الدرج حسب عاداتها . سأل أمه عنها فأجابت : انها ذهبت لتتنزه منذ

ساعة ولم ترجع ! . . ثم أضافت انها قد تكون زارت في طريقها بعض الجيران .

لم يكتفِ عزيز بهذا التفسير لعلمه ان زوجته في المدة الأخيرة كانت تتجنب الناس ومعاشرتهم كما تتجنب الأفاعي والعقارب . لذلك دخل تَوَّأً الى مخدعها ليرى اذا كانت قد لبست ثوباً من ثياب الزيارة فتأكد انها في ثيابها البيتية . لكنه لم يشاهد هذه المرة ما تعود ان يراه في غرفتها من الترتيب والانتقان . وبينما هو يسأل نفسه اين عسى ان تكون « قرقورته » وقع نظره على ورقة مطوية على صفحة الرخام أمام المرأة . فأخذها واذا فيها : « تجدني تحت السنديانة - جميلة » .

قرأ عزيز تلك الكلمات وطار بسرعة البرق الى السنديانة . وهو يعرف كل غصن من تلك الشجرة كما يعرف اصابع يديه العشر . هي السنديانة عينها التي كان يجلس تحتها مع جميلة في الأيام الماضية ، أيام سكرتهما بالحلب الأول وسعادة الحياة الزوجية . هي سنديانة دهرية واقفة على ظهر ربوة يجري عند قدميها نبع ماء نقي عذب . حولها كثير من الأشجار المختلفة

الأعمار ، لكنها أقدم شجرة في ذلك الجوار بل في كل
البلدة وجوارها .

وصل عزيز الى السنديانة ووقف جامداً كمن أصيب بمس
لا يدري أيكي أم يضحك .

« قرقورة ! قرقورة ! » - أمامه زوجته على الأرض
مضطجعة على جنبها الأيمن وعليها ثوب العرس ، ذلك الثوب
عينه الذي وقفت فيه بجانبه من مضي احدى عشرة سنة أمام
الحوري بولس . على رأسها اكليل من الأزهار . شعرها العقيقي
مسدول على كتفها اليسرى . وضيقة منه تطوق عنقها .
وأصابعها تسند خدها الأيمن .

« جميلة ! جميلة ! » جميلة لا تجيب . فانحنى فوقها ولا
يزال يحالج قلبه أمل ضعيف بانها ربما كانت نائمة . أخذ رأسها
بين يديه وللحال تراجع الى الوراء وصرخ مذعوراً اذ وجد
« القرقورة » جثة هامدة .

لما عاد اليه رشده واقترب منها ثانية لمح بين طيات ثوبها ،
فوق صدرها ، رسمه ورسمها في ثياب الاكليل ، ووجد بالقرب
منها ورقة مطروحة على العشب كأنها حاولت ان تمزقها ولكن
حال بينها وبين ذلك الموت . ففتح تلك الورقة بيد مرتجفة

وهذا ما قرأ فيها:

« الى قرقوري الحبيب الذي لا يثمن ! »

« في مثل هذا اليوم ربطتنا المحبة بوئاق الزيجة . واليوم
— بعد مضي احدى عشرة سنة — يفصلنا الموت . فهل
تلتقي بعد ؟ »

« اذا صح ما يقولونه عن الحياة الآتية فسوف تجدني بانتظارك
على عتبة العالم الثاني فاتحة ذراعي لاستقبالك ومهيئة شفتي
لقبلك . وسوف تسمع سؤالي مرة اخرى : كيف حالك
يا قرقور ؟ »

« آه يا عزيز ، لو كنت الآن بجانبني ! الآن ، وأنا واقفة
بحضرة الموت ، أحب أن أشكر لك كل قبلة قبلتني اياها بحب
وشوق ، أود أن أشكر لك كل كلمة وكل حركة وكل لحظة
حببت بها الحياة الي . مرّت بي دقائق جعلتني انسى أن في
العالم اوجاعاً واحزاناً . وتلك الدقائق كانت من هدايا حبك ،
فاشكرك عليها يا عزيز ! حلمت احلاماً جعلتني اظن نفسي في
السما لا على الارض ، وتلك الأحلام كانت من نسيمات حبك ،
فاشكرك عليها يا عزيز ! ذقت طعم سعادة الفردوس . وتلك
السعادة كانت من ثمرات حبك ، فاشكرك عليها يا عزيز ! »

« اما أنا فماذا قدمت لك عوضاً ؟ قدمت لك جسماً نقياً ،
 جميلاً ، طاهراً ، وبالأجمال كرسيت لك ذاتي . وما ذنبي اذا لم
 توازي تقدمتي عطاياك ؟ انت لم ترضَ بي وحدي ، لم تكثف
 بجميلة « مجردة » وانا قبلت بك وحدك دون بقية العالم . انت
 كنت لي الكل بالكل . سعادتي تمت بك وبحبك ، ولكن
 سعادتك لم تتم بحبي . أنت لم تظهر لي ذاتك في أول الأمر ،
 ولكن الأيام كشفت لي ما كان مستوراً عن عيني . كنت
 اظنك سعيداً بحبي كما كنت سعيدة الى النهاية بحبك فقط .
 وما امرٌ تلك الساعة التي ادركت فيها خطاي ! أتذكر حديثنا
 عن « العريس » ؟ أتذكر لما سألتك اذا كانت سعادتك غير
 تامة بلا اولاد ؟ أتذكر جوابك لي ؟ حاولت مع ذلك ان
 أخدع نفسي . حاولت ان اقنع ذاتي ان محبتك للاولاد كانت
 كمحبة بقية الرجال ، وان حبك اياي سيبقى كما كان سواء
 رزقنا الله « عريساً » أم لم يرزقنا . وما أمرٌ الحقيقة التي كشفتها
 لي حوادث السنوات التي تلت ذلك !

« لما تأكدت ان لا رجاء مني لألد لك اولاداً نبذتني من
 حياتك كالنواة . ولم تكتمرِ بذلك بل ابغضتني وكرهتني
 كأنني سم أفعى . بدأت بالتدخين ثم بالسكر ثم بشتمي وضربي .

أتذكر لما ضربتني لأني رفضت أن أذهب الى الكنيسة لابسة
كل حلي؟ آه ! ما ألد تلك الضربات من يدك ! قل لي بحقك
أما كانت تدخل الشفقة قلبك عندما كنت تنظر اليّ اسير في
البيت كشبح أصم أخرس ، اراقب كيف تهبط بناية سعادتي
أمام عيني ، وأرى نفسي غريبة كيفما توجهت ؟ أنسيت اني لم
أزل من لحم ودم مثلك ، وأنّي لم افقد رقة شعور النساء ؟ هل
قسوت الى حدّ ان لم يبقَ في قلبك مكان للركة على الاطلاق ؟
آه كم مرة وددت في تلك الدقائق لو نظرت الى أعماق
نفسي كما كنت تنظر الى خفاياها سابقاً بعينيك الحارقتين ،
ورأيت ما كان يحول فيها !

« أنت لا تعرف آلام الجرح في القلب . وأول جرح في
قلبي نلته من يدك كان ادراكي ان حبك لي من البداية الى
النهاية لم يكن حباً لشخصي أنا ، لم يكن حباً لي كإنسان مستقل
بوجوده وكيانه في هذا العالم . أنت أحببتني كأولادك في
المستقبل . أحببتني كأنثى ستترك لك ذرية قبل أن تموت . ذاك
عندك طبيعي . لكنه عندي أمرّ من الموت . لما كنت افكر
ان لا ثمن لي في عينيك بذاتي ، ان لاقية لجسمي وروحي بين
يديك الا كآلة للتبذير ، كنت أطلب الموت لنفسي .
« أنت لا تفهم ذلك . أنت الى الآن لا تدرك ان المرأة

انسان ولها قيمة محصورة فيها ومستقلة عن اولادها . انا وجدت فيك تنمة حياتي ، لكن تنمة حياتك لم تنحصر فيّ بل تعدتني ، وهذا ما كان يؤلمني ويجرح قلبي . أحبتك قبل الزيجة وأحببتك بعدها ولا ازال أحبك الآن . لم ابغضك الا دقيقة واحدة فقط ، لما رفعت يدك وضربتني ، مع اني اذكر ذاك الحادث الآن براحة ولذة واشتهي لو كنت معي لتعيده .

« هل ظننت اني شاذة عن سنة الطبيعة ؟ هل حسبت اني ، وأنا امرأة ، أبغض الأولاد واعالة الأولاد ؟ آه لو تدري كم ليلة حلمت ان طفلاً على ذراعي ! كنت أراه كذلك في اليقظة يمتص ثديي . واسمع دقات قلبه الصغير وأرى يديه الصغيرتين تلعبان في الهواء . كم مرّة رأيته يدرج أمامي في الدار . كم مرّة سمعته يناديني « ماما ! »

« كم مرّة جلست بقرب سريرهِ الصغير وغنّيت له ليلنام محدقة بوجهه الملائكي وعينه السماويتين ! . . لكنك كنت اعمى عن كل ذلك . كيف لا تفهم اني لو رفضت ان اضحي بسعادتي ، وهي حقيقة كائنة ، لأجل اولاد لا يزالون في رحم المستقبل ، أي لأجل ما ليس كائناً ، لا اكون اعبر بذلك عن بغضي للأولاد ؟ الا يقول المثل : عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة ؟ مع ذلك فقد سلمت نفسي لارادتك كعبدة . حرمتني

لذة الشغل في البيت خوفاً من كلام الناس ، فرضيت . كرهتني
لاني لم ألد لك عريساً ، فحملت نفسي فوق طاقتها من زيارة
الاطباء والقديسين والأديرة . انت لا تدري كم ذرفت من
الدموع في خلواتي وابّان سياحاتي . انت لا تدري كيف كان
يقطر قلبي دماً لما كنت أراك تهرب مني وتميل نظرك عني كأني
هواء اصفر ! امك وأبوك كانا يشتهيان ان يقذفني عزرائيل
عنك لعلك تقدر ان تأخذ لك امرأة « ولاّدة » . وها انا
احذف نفسي من حياتك . فربما وجدت احسن
وأخصب مني .

« كنت متعلقة بوميض امل ضعيف ، كما يتعلق الغارق
بقشة . حملت الماضي والألم والذل والاهانة وانا أقول :
ربما . . . ربما عدت فولدت لك عريساً بعجبية من السماء .
كنت اظن اني اذا حصلت على ذلك استرجع خيال حبك
السابق وسعادتنا الاولى . وشدة رغبتني في ارضائك واسترجاع
حبك حملتني على اقرار ذنب لو غفرته انت لي فلا اغفره انا
لنفسي . سيفصلنا الموت عن قريب ، فلماذا اخاف ان
اطلعك عليه ؟

« أنا أحمل الآن في احشائي روحاً صغيرة وجسماً صغيراً .
هو الجنين الذي اعاد الابتسامة الى وجهك والنور الى عينيك .

تكنه ليس من لحبك ودمك . . .

« ضحيت غرة نفسي وطهارة جسمي لأحصل عليه أرضاء
لخاطرك ، لكنني أدركت الآن ان ما فعلته ذنب لا يغتفر . انا
لا أريد أن أشتري حبك بالخداع والزنى . . . لكنني لما زنيت ،
زنيت لأجلك فقط . . .

« ها أنا أشعر بحركات هذا الطفل التعس بين ضلوعي .
لكنها ستهمد عما قريب . ستقف دقائق قلبه الصغير عندما تقف
دقات قلب أمه الزانية . من هو أبوه ؟ وهل يهمك أن تعرف
ذلك ، او هل يخفف ذاك من ذنبي ؟

« يكفيك أن تعرف انه ليس ابنك ، فربما يسرك حينئذ
انني أموت واميته معي .

« الا فاعلم يا عزيز ان العاقر انت لا أنا .

« وأنا ، مع ذلك ، مجرمة في نظرك ونظر العالم ، فهل قتلي
لنفسى جريمة كذلك ؟ أو لم أمت قبل الآن ؟ ألم أكن ميتة
كل هذه السنين التي تركتني فيها وحيدة غريبة كسيرة النفس
والقلب ؟ ومن هو قاتلي ، ألسنت أنت ؟ الآن لا مرد لما فات .
ان عزيزاً الذي أحبه روحي أولاً راح ولن يرجع . فما غايتي
بعد من الحياة ؟

« لماذا انكم عن كل هذه الامور ؟

« بعد دقيقة تجمد هذه اليد وتضمحل هذه الأفكار وتسكت

دقات هذا القلب الى الأبد . ها الشمس تميل الى المغيب . وانا

أشتهي ان تفارقني الحياة قبل ان يفارق النور أغصان السنديانة .

في السنديانة فوق رأسي جوق من عصافير الحسون . ما ألدّ

تغاريدها ! ما أطيب خرير الساقية وحفيف أوراق السنديانة !

« أتذكر لما كنّا نأتي ونجلس هنا أول ما عرفنا الحب ؟

« آه لو كنت بجانبني الآن لأضحك ولو مرّة الى صدري قبل

ان اودع هذا العالم ! هنا ولدت محبتنا وهنا ادفنها معي ..

« في يدي الآن رسماً في ثياب الاكليل . ما كان أجملك

والطفك يا عزيز في ذاك النهار ! ما اجمل شاريك وما اعمق

سحر عينيك وما الذ نضارة وجهك ! آه لو يعود عزيز صباي ،

عزيز حبي ، عزيز حياتي وسعادتي ! ..

« ما كان الذ الحياة معك يا عزيز ! اشكرك . اشكرك .

اشكرك على كل قطرة من السعادة التي ارتشتها من ينبوع حبك ،

واطلب منك صفحاً عن كل اساءة صدرت مني نحوك ان كان

بالقول او بالفعل او بالفكر . اموت واسمك بين شفتي .. هل

يمكنك ان تدفن هذه الصورة معي ؟ .. احب ان انام

نومتي الأخيرة مع رسم حبيبي عزيز الذي علقت به روحي من

يوم أدركت معنى الحب . . . لا طلب لي اليك سوى ان تصفح
عن هفواتي . . . ولا وصية لي عندك سوى امي . امي . امي . . .
حبيبتي امي ! ترى ماذا تفعلين بعد انحجاب جميلتك عنك
الى الأبد ؟ ! . .

« اذا ذرفت على تربتي دمعة فقط . . . دمعة واحدة . . .
أكون ممتنة لك حتى بعد القيامة . . . وداعاً يا قرقوري الحبيب !
وداعاً يا قرقوري الذي لا يثمن . - قرقورتك : جميلة »

✱

أخبرني صاحب من قرية عزيز الكرباج انه رآه حديثاً في
نيويورك ، وسأله هل تزوج ثانية ، فأجابه متنهداً وفي صوته
غصة : « لا جميلة بعد جميلة ! »

« ١٩١٥ »

الذخيرة

بُست الساعة التي شككت فيها بقوة الحُشبة !

بُست لأنها انتزعت مني سيراََ يندر نظيره بين السَّمار .

توطدت العلاقات الودّية بيني وبين شاهين بطرس الجزيني في آخر الاسبوع الأول لعودته من البرازيل . وقد رغبت في التقرب اليه لعمدوبة حديثه وطلاوة افاصيحه . فلم يمضِ على تعارفنا شهران حتى أصبحت قادراً أن أقص عن البرازيل ما كان يدفع البعض الى الظن بأنني ولدت وقضيت قسماً طويلاً من حياتي فيها . لكنني كنت اضطر كلما دعاني احد من السامعين الى دعم قصتي ببرهان ان احيل السائل الى صديقي شاهين ، وصديقي شاهين كان يدحض كل شكوك السامعين ببرهان قاطع لا يحتمل الرد والتأويل : « رأيت كذا وكذا بعيني » او « سمعت كذا وكذا بأذني . » فكان اذا اخبر عن الأفاعي التي تزدد الثيران - مثلاً - يقص الحادثة عن نفسه وبلسان المتكلم هكذا :

- « كنت ماراً ذات يوم في حرج كثيف واذا بثور بري واقف كالمسحور في منتصف الطريق التي كنت سائراً فيها .

وبينا انا افكر في وسيلة للفرار منه سمعت نفخة كأنها من كور حداد . واذا بالثور يهوي الى الارض بلا حراك . وهنا برزت من وراء شجرة أفعى كبيرة سوداء ، لو قلت لكم ان محيط دائرة جسمها يساوي استدارة سنديةانة مار نقولا او يزيد فصدقوني . انزلت بندقيتي عن كتفي ووقفت مكاني اراقب حركاتها . اقتربتُ أولاً من رأس الثور وشرعت تلحسه بلسانها ثم انتقلت الى رقبتة ثم الى ظهره وهكذا حتى لحست كل جسمه وأنت على آخر ذنبه . ولما انتهت من لحسه أخذت تبتلعه بادية بالذنب . فتركها ولم يبقَ من الثور خارج بطنها سوى قرنيه . »

وقد لاحظت في مدة تقربي من شاهين انه يشتم من كل من يبدي أقل شك في صحة رواياته وأقاصيصه . لذلك كنت التحاشي جهدي كل سؤال يُشتم منه شك او تكذيب . ومما ادهشني من أمره ان جراب اخباره كان بجرأ بلا قاع حتى انه لم يقص علي القصة مرتين ، وكان كلما انهي قصته ورأى الدهشة بادية على وجهي بادرنى بقوله :

— « هذه بسيطة . عندي اغرب منها بكثير . »

فهبج افكاري بترداد هذه العبارة الى ان جثته يوماً قاصداً

ان لا انصرف عنه حتى أسمع أغرب ما عنده من الاخبار .
فجلسنا حسب عادتنا على مصطبة أمام بيته تظللها دالية من
الكرم قد تدلّت عناقيدها فوق رأسينا ، وجيوش الزلاقط
والزناوير تجول بين حباتها مهللة مدممة .

ولم تمض بضع دقائق حتى وجدتني قد انتقلت مع جليسي
الى آجام البرازيل اراقب عجائب المخلوقات ورافق صديقي في
رحلاته المحفوفة بالمخاطر . ونخيل الى أكثر من مرّة ان الجالس
بجانبي لم يكن شاهين بل شبحه . وكان كلما أتى على آخر حكاية
رمقني بنظرة من يعرف قيمة نفسه ويرتاح قلبه لعلامات الدهشة
البادية على وجهي . اما انا فكنّت عند نهاية كل قصة اردد على
طرف لساني سؤالاً اعدته قبل مجيئي . وهو : « هل هذه
أغرب ما عندك ؟ » وكأنه قرأ ما كان بفكري فأنهى قصة
طويلة لم اصغ لتفاصيلها كل الاصغاء وبادرني بقوله :

— « هذه حادثة غريبة . انما عندي أغرب منها بكثير . فهل
تحب ان تسمع أغرب ما عندي ؟ »

وما كدت اجيبه « هات واسمعنا » حتى رأيت قد أخذ
يفك ازرار قميصه ثم يمد يده الى تحت ابطه ويخرج من هنالك
قطعة من الجلد الاسود مثلثة الزوايا معلقة بحيط اسود حول

عنقه . فالتفت عليها نظرة ازدراء وأملت وجهي باسمًا . لكن صاحبي لم يهتم لازدرائي وابتسامة الاستخفاف على وجهي، بل أخذ بيدي ومد قطعة الجلد الى تحت انفي قائلاً :

— « أتدري ما هذه ؟ لو عرفت قوتها كما اعرفها انا لما كنت تضحك . هذه « ذخيرة » من عود الصليب ، الصليب الذي علق عليه السيد المسيح . لا تضحك ، فانا قد ضحكت قبلك ، لكني لا اضحك الآن . انا — وانت تعرفني — انا رجل عصري . قديسون وملائكة وشياطين وجنّة وجهنم وآلهة وانبياء — « حط بالخرج » — انا عصري لا اعتقد بدين او ديانة . وكما تراني لست من بسيطي القلب . لكنني أوّمن بهذه الخشبة . »

فاحتوت في امري ولم ادرِ أأخذ كلامه مأخذ جد أم هزل .
لذاك سكتُ وكأنه عرف ما دار في خلدي فتابع كلامه :
— « أنا لا امزح . فهذه الخشبة هي ربي والهي الآن وكل أوّان والى دهر الداهرين . »

واذ رأيته في موقف جد حاولت ان اقنعه ببراهين تاريخية وعقلية ان من البهتان ان تكون تلك الخشبة من الصليب الذي سُمّر عليه الناصري ، وانه اذا صح ان الصليب الذي

وجدته القديسة هيلانة كان صليب المسيح الحقيقي فلا يعقل ان يسمح الذين ظفروا بتلك الجوهرة بعد هيلانة بتجزئتها الى كسر صغيرة كالتي معه ، واننا اذا سلمنا بتحطيم ذاك الصليب فلا نقدر ان نسلم بان رؤساء الديانة المسيحية في كل الاقطار قد تخلوا عن كسرة منه للعلمانيين ، وان الذين يحملون امثال « ذخيرته » يعدون بالالوف ، وانه قد مضى على وجود الصليب اكثر من الف وخمسمائة سنة ، فمن اين له ان يبين ان القطعة التي معه هي من الصليب الحقيقي ، الى ما هنالك من البراهين التي كنت أحسبها كافية لدحض رأي كهذا . وأخيراً سألته اذا كان يؤمن بقوة صليب المسيح فلماذا لا يؤمن بالمسيح نفسه ؟ فاجابني ببرودة خاطر عرقلت لساني وبلبلت افكاري :

— « قد قلت لك انني رجل عصري . وانت تعرفني . فكيف اؤمن بالمسيح وعجائبه وكلها تخالف العقل الصحيح على خط مستقيم ! اما هذه الحشبة فقد رأيت افعالها بعيني وجربت قوتها بنفسي . فكيف اشك بها ؟ اما انها من صليب المسيح فالرجل الذي ابتعتها منه نفى من عقلي كل الشك في أمرها . هو يوناني الأصل . كان قبلاً كاهناً في القدس مقرباً من البطريك . فاهدى اليه البطريك هذه « الذخيرة » وليس مثلها

في العالم كله سوى واحدة عند البطريك المسكوني في اسطنبول
واخرى في بطرسبرج وثالثة في كنيسة القيامة في القدس . وقد
أراني حجة ناطقة تؤيد ذلك ولا تحتمل الشك . وعدا ذلك قد
قلت لك اني شاهدت عجائبها بعيني . وقبل ان ادفع الى
اليوناني عشرين ليرة ثمنها جربتها بألف طريقة . يا حيف عليك !
انظني من المغفلين ؟ اقول لك اني لم اشتراها حتى علقها اليوناني
في عنقه وأعطاني بندقية مزدوجة فحشوتها بيدي هذه (وضرب
يده اليمنى بالسرى) ثم وقف على بعد خمس خطوات مني
وقال : « اطلق عياريك . » فاطلقت العيارين واليوناني لم يصب
بأذى على الاطلاق . نعم لم يخمش اقل خمش . حينئذ صدقت
ما كان يقصه لي عن انه اصيب بعشر رصاصات في الحرب ولم
يجرح ، وانه قضى مرة في البحر يومين عندما تحطمت الباخرة
التي كانت تقله ففرقت وغرق كل ركبها إلاه لان هذه
« الذخيرة » كانت معلقة بوقبته . اي . يا حيف عليك !
ألا تعرف انني من الذين « نزعوا الدبس عن الطحينة » ؟
صاحبك شاهين ليس من البسطاء يا صاحبي .

« قصدت ذات ليلة — بعد ان علقت الذخيرة في عنقي —
صديقاً لي ساكناً في مزرعة بعيدة من المدينة . وكانت طريقي

بين الأحرار . امتطيت صهوة فرسي واطلقت له العنان .
وبينا انا في منتصف الطريق بين ادغال كثيفة قائمة الى الجانبين
واذا بفرسي وقف وشخر ثم ارتجف كالقنبرة . نظرت الى امامي
فاذا بنقطتين تبرقان في الظلمة ، فعرفت على الفور ان أمامي نمرأ
يتحفز للوثوب عليّ . وما هي الا لحظة حتى سمعت دوي
الرصاص ورأيت النمر قد ارتفع في الفضاء ثم انطرح بين
الادغال ميتاً . ولم أكد أغبط نفسي على خلاصي منه حتى
أدركت اني بين زمرة من العبيد اللصوص الذين بعد ان قتلوا
النمر انهلوا عليّ بوابل من الرصاص . فاعملت الممماز في خاصرة
الجواد ، وشعرت قبل ان انجو بنفسي برصاصة اصابته فخذي
وأخرى رأسي وثالثة ظهري وكلها كانت ترجع عني كأنها اصابته
صفحة من الفولاذ . وقد وجدت في اليوم التالي رصاصتين في
السررجه وهما لا تزالان عندي . هذا بسيط ! وقد حدث لي
اغرب من ذلك عندما احترق البيت الذي كنت اسكنه فذهب
وكل من فيه ضحية النار وبقيت انا وحدي سليماً . وهذا بسيط
ايضاً ، وقد حدث لي اغرب منه بكثير مما يشيب الأطفال .
وسأقص عليك بعضاً منه فيما بعد . »

لا ادري من اين اتتني الجسارة على ان أقول لصاحبي
شاهين بعد ان اصغيت اكثر من ساعتين لأقاصيصه اني - مع

كل اعتباري آياه - لا ازال أشك بقوة خشبته . ولما شرعت
اسأله هل فحص بنفسه الخرطوش الذي ناوله آياه اليوناني ليضعه
في البندقية عنديما جعل نفسه هدفاً للنار نظرت الى وجهه فاذا به
قد جمد كقطعة من حديد وجحظت عيناه ثم صاح فجأة بأعلى
صوته منادياً ابنه الوحيد الذي لم يبلغ بعد الخامسة
من عمره :

« الفريدو ! الفريدو ! »

ولما لم يحبه الفريدو وثب قائماً وهول نحو البيت ، وبعد
هنيهة خرج وهو يحمل في إحدى يديه بندقية وبالأخرى يجر الفريدو
الصغير الذي تبع آباه صاغراً وعلى يده قطعة بيضاء حريرية
الصوف يقبلها تارة وطوراً يداعب رأسها بيده ، اما أنا فبقيت
جالساً كمن أصيب بمس لا أدري ما عسى ان يعني كل ذلك
المشهد ؛ وشاهين لم يتنازل بعد ذلك ان يبادلني كلمة واحدة كأنني
حجر ملقى على المصطبة لا صاحب له . لكن منظر الصبي الصغير
وقطته والخنو الذي كان يبيديه نحوها مع بعض الدهشة البادية
على وجهه من معاملة آبيه حوّلت أفكاري عن شاهين قليلاً فلم
ادرك كنه قصده حتى رأيته قد اوقف الصبي على طرف المصطبة
ثم نزع الذخيرة من رقبتة وعلقها برقبة ابنه آمراً آياه ألا يتحرك

من مكانه . ثم تراجع بضع خطوات الى طرف المصطبة الآخر
والبنديقية في يده . ثم رفعها الى كتفه فلم اصدق عيني اذ رأيته
يصوبها نحو ابنه . فوثبت كالمجنون غير آمل ان اصل الى يده
قبل ان يتم القدر الرهيب . واصطكت رجلاي وانقطع
نَفْسي وارْتَجفت يداي . لكنني تمكنت من ان ادرك الحُطَر
وان اخلص الطفل من الموت . تمكنت من ان اميل يد صاحبي
قبل فوات الوقت فدوى العيار في الفضاء وذعر الصبي واجهش
بالبكاء .

فهرولت الام بقلب متقطع من داخل البيت ولم تصدّق ان
وحيدها لم يزل حيّاً حتى رفعته بيديها وضمته الى صدرها ونشفت
دموعه بشفتيها ، ولما سكن روعها هجمت نحو زوجها وطفقت
تصب عليه اللعنة بعد اللعنة والشتيمة اثر الشتيمة . ومن الغرابة انه لم
ينبس ببنت شفة بل نزع الذخيرة بهدوء من عنق ابنه ثم صبر
حتى عادت زوجته مع ابنها الى داخل البيت وعاد فالتقط
القطعة التي كانت قد افلتت من يد ابنه وعلق الذخيرة في عنقها
ثم أخذها وربطها حيث كان قد اوقف ابنه منذ دقائق ، وتراجع
الى الورا دون ان يتكرم عليّ بكلمة ورفع البنديقية ثانية الى
كتفه وأطلق عياره قبل ان أتمكن من ان أشفع لديه بتملك

القطعة الجميلة المسكينة التي لم يبقَ منها في لحظة سوى امعاء
مزقة وكتل من الصوف مبعثرة وبركة دم صغيرة في المحل
الذي كانت مربوطة فيه .

ونظرت في تلك الدقيقة الى صديقي شاهين فاذا بلونه قد
امتقع وبعينيه قد جمدتا ثم رأته قد رفع البندقيّة في يده
وطرحها عنه الى بعيد بحنق كلي ووقف بعد ذلك هنيهة مكانه
ثم مرّ من أمامي بخطوات مسرعة فلم أجسر أن أسأله الى أين،
بل وجدت من الحكمة ان أعود الى بيتي ساكناً .

*

كنت بعد ذلك الحادث بأسبوع ذاهباً ذات ليلة الى غابة
الحور على شاطئ الساقية لأتخلص من وطأة الحر وأسامر
الضفادع بعد ان حرمني صاحبي شاهين من لذة مسامرته ،
فرايت في ضوء القمر رجلاً جالساً على حافة بركة في الساقية
يرمي فيها حجارة . ثم رأته ينزع من عنقه قلادة ويربط بها
حجرًا وي طرح الحجر في البركة متمماً . واذا احسّ بوقع

قدمي نهض حالاً فعرفت فيه صاحبي وسيري وشعرت بقوة
تدفعني اليه لأرتقي على عنقه واطوقه بيدي والتم انامله وأسأله
الصفح عن كل ما سببته له من المساوىء واعتبر له عن حاجتي
القصوى اليه وشوقي الى تجديد العلاقات الودية بيننا . لكنّه
مرّ كطيف من أمامي دون ان يلتفت يمنة او يسرة . وقبل
ان اجد في نفسي قوة لأحرك لساني غاب خياله عن عيني
وابتلعت السكينة وقع خطاه البعيد على اوراق
الخور اليابسة .

« ١٩١٧ »

سعادة « البيك »

كنت مع رفيق لي في مطعم سوري نتناول طعام العشاء ، وكانت الساعة بعد التاسعة والمحل قد فرغ من الزائرين . فجاء صاحبه وجلس معنا ليساعدنا باقاصيصه الغريبة على ازدراد مطبوخاته وهضمها . وهو رجل لطيف المعشر يتودد الينا ويغالي في ارضائنا لاننا عنده من الزبائن « المكفولين » . فقال ورفيقي جليسينا ناظرًا الى ساعته :

- لقد جئناك متأخرين هذه الليلة يا ابا عساف ، واخاف انك تستعد لتقفل مطعمك وتعود الى بيتك فلا تتأخر من اجلنا !

فهر ابو عساف برأسه يميناً وشمالاً وأقسم لنا بحياة عساف انه يحسب الجلوس معنا شرفاً وانه من اجل خاطرنا يفتح مطعمه حتى نصف الليل ، وانه هو والمطعم على « حسابنا » . و اضاف انه قلما يقفل بابه قبل الساعة العاشرة لأن « البيك » لا يأتي حتى الساعة التاسعة والنصف .

فبادرناه بالسؤال سوية بفهم واحد : من هو « البيك » يا ابا عساف ؟

وكاننا بسؤالنا جدقنا على الانبياء والقديسين الذين يعبدون
ابو عساف اكثر من ربه وانكرنا وجود العزة الالهية او قلنا
اننا وجدنا في الشورباء خنفساء . اذ جحظ ابو عساف وقال
كمن لا يصدق اذنيه :

- احقاً لا تعرفان البيك ام انتما تمزحان ؟
اذاً من تعرفان ؟

وقبل ان يتغلب ابو عساف على دهشته من جهلنا المطبق
اذا بالباب ينفتح ويدخل منه رجل طويل القامة منتصبها ضيق
الكتفين مندلق الكرش ، طويل اليدين والاصابع . في يده
اليمنى عصا كذذب الكلب . وفي اليسرى جريدة عربية . وعليه
بذلة نصفها الاسفل رمادي ونصفها الاعلى بني وكلها قد نهش
الاستعمال اطرافها فتدلت خيطانها بين طويل وقصير . اما وجهه
فلم ارَ منه لأول وهلة سوى شاربيه الكثيفين الملاصقين لطرف
اذنيه ، وانفه المنتفخ كالكوز ، وبشرته الحادة السمرة .

ومشى الزائر بخطوات ثابتة متثاقلة الى آخر المطعم ، وهناك
لقى عصاه وبرنيطته على طرف الطاولة وجلس يطالع جريدته .
فتفرست فيه ملياً اذ رأيت في حركانه ولباسه من الغرابة ما
زاد في شوقي لدرس ملامحه . ومن أغرب ما استلفت نظري
فيه شكل رأسه الذي يشبه رأس الصنوبر ، وحجم اذنيه

المسطحتين اللاصقتين بمجتمته كقطعتين من العجين ، وشعره القصير الذي يبدأ فوق حاجبيه بقيراطين .

— يا ابو عساف هات لنا كوسى مع الورق وكروش بجمص وحمص بطحينة ، وشوية بطيخ !

قال زائرنا ذلك دون ان يرفع عينيه عن الجريدة بصوت من تعوّد منذ نعومة اظفاره ان يأمر وان لا يُرد له أمر . وكان ابو عساف مذ رآه داخلاً قد اسرع الى المطبخ فأعد له بلحظة كل ما طلب وقدمه اليه بكل هيبة واحترام دون ان يفوه بكلمة كأن زائرهم جبار من الجبابرة او ملك من الملوك . وهكذا بقي ابو عساف يأتي بصحون ويأخذ صحوناً الى ان انتهى الزائر من اكله فنهض ووضع برنيطته على رأسه وأخذ عصاه بيدٍ وجريدته بأخرى وخرج مثلما دخل بخطوات ثابتة بطيئة ودون ان يلتفت يمناً او يسرة او ان يدفع لأيي عساف فلساً واحداً .

وما هي الا هنيهة حتى عاد ابو عساف اليها يعتذر عن اهماله لنا مدة وجود الزائر الثالث في المطعم وذلك بلهجة غريبة كأنه كان اخرس وانطلق لسانه . وقبل ان نبادله كلمة واحدة قال :

— هذا هو البيك . أرايتاه ؟

فسألناه عن اسمه وشأنه فقال :

— اسمه اسعد الدعواق . وهو من بلدتنا في لبنان وآخر مشايخ بيت الدعواق الذين حكموا بلدتنا زماناً طويلاً ، فكانوا مطلقي الارادة وكان اهل البلدة عندهم كعبيد لا يملكون من الارض التي يحرثونها فترة . فجار الدهر عليهم بعد حين كما جار على الكثير من الامراء والمشايخ سواهم . وحدث ان البعض ممن كانوا عندهم قبلاً مرابعين هاجر الى اميركا وعاد بالمال فاشتري قسماً كبيراً من الارض التي كانت ملكاً لبيت الدعواق . وأخذ هذا البيت ينقرض جيلاً بعد جيل حتى لم يبق منه الا الشيخ اسعد ولم يبق للشيخ اسعد من عز اجداده الا اسم المشيخة وديون لا تحصى .

ثم حدث كذلك ان واحداً من ابناء البلدة ومن خدام الشيخ اسعد سابقاً حصل في اميركا ثروة كبيرة فعاد الى الوطن وبني له قصراً فخماً وابتاع لنفسه لقب « بيك » وانما تعلمان كيف كانت تشتري وتباع هذه الالقاب عندنا .

وكان الشيخ اسعد حتى ذاك الوقت راضياً بجاله ، قانعاً بما قسم له ، مكتفياً بانه لا يزال شيخ البلدة ووجيهها دون

معارض او مزاحم . اما بعد ان اصبح في البلدة بيك فلم يعد
يهناً للشيخ مقام .

وكيف يقبل ابن الدعواق على نفسه ان يكون في بلدته
من هو ارفع منه رتبة ؟

والانكى من ذلك كله ان يكون هذا البيك من بعض
خدام الشيخ سابقاً . الموت ولا الصبر على هذه الالهانة !
فانقلب الشيخ بغتة كأنّ يدأ خفية اخلسته وجاءت بسواه .
فلم يعد يزور الكنيسة وكان لا يفوته احد ولا عيد . وحتم على
زوجته ان لا تخرج من البيت . وسحب اولاده من المدرسة
وأقفل أبواب بيته للناس فلم يعد يقبل زائراً .

وصار اذا مشى في الشارع لا ينظر يمنة ولا يسرة . واذا
لقى عليه العابرون السلام لا يردّ لهم سلاماً . واذا اتفق والتقى
بالبيك في الطريق شخ بانفه وقتل شاربيه وبرم عصاه في يده
وتنحج وتفل على الارض كمن يتفل على الشيطان .

فحار اهل البلدة في امره وكثرت اقاويلهم وتآويلهم .
فمنهم من قال بان الشيخ فقد عقله لان كل خطايا بيت الدعواق
ومظالمهم قد تعلقت بعنقه كحجر رحى . ومنهم من قال بانه
لم يعد يقوى على معاشرة الناس بعد ان تقلص كل عز اجداده

واحى . ومنهم من ظن ان الشيخ صار يخجل من مقابلة الناس
لكثرة ما عليه من الديون وانه لا يقبل الزائرين اذ ليس عنده
ما يقدمه اليهم من واجبات الحفاوة واكرام الضيف .

وهكذا بقيت البلدة في قيل وقال الى ان شاع الخبر عن
ان الشيخ قد اختطفته جنية ، اذ مر نحو اسبوع ولم ير له احد
وجهاً . فقامت البلدة وقعدت واجتمع الشيوخ برئاسة الكاهن
لينظروا في هذه المسألة الخطيرة ويروا كيف يخلصون الشيخ
من يد الجنية او كيف يتخلصون من بقية نسل الشيخ
ليدروا عن البلدة خطر الجان . وبينما هم في اخذ ورد وقد
استحوذ عليهم الذعر والكاهن يبين لهم ان من الضرورة ان
يدخلوا بيت الشيخ بالقوة ليرشوه بالماء المقدس وان يبعدوا
اولاده وزوجته عن البلدة خوفاً من ان تمتد بواسطتهم سلطة
الجان على البلدة كلها ، اذا بالشيخ يدخل عليهم فجأة . فجمدوا
لحظة كالسمرين في اماكنهم . ثم هبوا كرجل واحد واقفين .
وهكذا وقفوا بضع دقائق كالأصنام دون ان يحرك احدهم
شفة ، والرعب قد اخذ منهم كل مأخذ . واخيراً تجرأ
الكاهن فقال بصوت مرتجف بعد ان رسم علامة الصليب
على وجهه :

— اهلاً وسهلاً ، اهلاً وسهلاً بالشيخ اسعد !

فقاطعه الشيخ مفتلاً شاربیه :

— سعادتلو اسعد بك الدعواق يا بونا ، سعادتلو اسعد بك .

الشيخ اسعد مات وقام اليوم مكانه سعادتلو اسعد بك !

بقي جرس الكنيسة يقرع تلك الليلة نحو الساعة مبشراً
السكان بان شيخهم قد اصبح « بيك » . وانتشر الخبر كالبرق
في البلدة ان الشيخ اسعد قد غاب كل تلك المدة اذ دعاه
المتصرف اليه ليعلنه حصوله على البكوية . فقامت البلدة تحرق
ما عندها من البترول والحشيم ، وقام « الدبك » ودار التهليل
« يا بيكننا ! » ولآخر مرة في تاريخ بيت الدعواق عادت دارهم
فاكتظت بالجماهير ، وعادت الانوار تتلألأ من شرفاتها ، وعاد
الشبان والفتيات فأحاطوا بها بين مهللين ومنشدين ومزغردين
والكل معتقد ان عزّ بيت الدعواق قد اخذ يتجدد وربما
فاق عزّ الأجيال السالفة .

وكان اول ما فعله الشيخ اسعد بعد أن اصبح « سعادتلو » انه
اطلق سراح امرأته واعاد اولاده الى المدرسة بعد ان اوصى
المعلم ان يجلسهم في رأس الصف لأنهم أولاد « البيك » وألاً
يخطر له ببال ان يجلس اولاد « البيك » الآخر فوقهم ، وعاد

فأبرم صلحاً مع الله وجدد زيارته الى الكنيسة .

ومن شدة غيrote على شرف رتبته الجديدة رفض كتاباً جاءه بعنوان : « رفعتلو اسعد بك الدعواق » ومن ذلك الحين انذر مأمور البريد في القرية انه لا يقبل كتاباً باسمه الا اذا كان معنوناً « سعادتلو اسعد بك » .

اما زوجته فلم يعد يشير اليها امام الناس باسمها ولا باسم بكرها ، بل بلقب « البيكة » فيقول : « البيكة في البيت » و « البيكة لا تستقبل اليوم ضيوفاً » ويمتنع اذا ذكرها احد امامه ولم يذكر لقبها .

وهنا يجب ان ارجع بكما الى اليك الاول ، ذاك الذي كان خادماً عند الشيخ اسعد وهاجر وحصل على ثروة وعاد وابتاع لقب بك قبل ان يناله الشيخ . هذا الرجل واسمه « رو كس تصور » كانت في قلبه ضغينة ضد الشيخ اذ كان قد طلب منه يد ابنته فاشتعل الشيخ غيظاً وطرده من بيته وأمره ألا يعود ويطأ عتبة والا ينسى انه كان خادماً ، وكيف للخدام ان يجسروا على طلب بنات الاسياد ؟ فخرج رو كس تصور من عند الشيخ وقد اضر له السوء . فرأى ان يطعنه طعنة نجلاء في نقطة حساسة من حياته ألا وهو اعتزازه باجداده وفخره بانه لا

يزال في مقدمة كل اهل البلدة رتبةً ومقاماً . فراح وابتاع لذاته لقب بك ووطن انه قدسحق خصمه الى الأبد . غير انه ما طال ان شاع خبر الشيخ وسفرته الى مركز المتصرفية ورجوعه من هناك مع البكوية . فما الحيلة بعد ذلك ؟

بقي رو كس تصور يبحث عن وسيلة للانتقام من خصمه الى ان خطر له يوماً فكر جديد وهو : من اين جاء الشيخ بالمال ليشتري البكوية ورو كس يعرف انه يأكل بالدين ويشرب بالدين وانه قد رهن من زمان كل ما فوقه وتحتة ؟

وهذا الفكر قاده الى مركز المتصرفية وهناك بحث واستقصى فلم يجد من يعرف الشيخ ولا من سمع به ، وأكد من بينات كثيرة ان الشيخ لا زار مركز المتصرفية ولا نال بكوية ، بل اختلق ذاك اختلاقاً ليحارب خصمه بسلاحه . وانطلقت الحيلة على اهل البلدة لانهم سذج ولان اسم الدعواق عندهم يعني القوة والسؤدد والعظمة .

ما عاد رو كس تصور باكتشافه الجديد حتى انتشر الخبر بلمحة طرف من بيت الى بيت عن ان « سعادتلو اسعد بك الدعواق » لم يكن سعادتلو على الاطلاق ، وانه لا يزال الشيخ اسعد « حاف » . وفي ذلك اليوم عينه غادر الشيخ البلدة وانقطعت اخباره .

وراح زمان وجاء زمان . وهاجرت انا الى اميركا وقتحت
مطعماً في نيويورك . وحدث ذات ليلة أن سمعت ثلاثة من
زبائني يتحدثون عن « سعادة البيك » فقال واحد منهم انه رآه
في حديقة عمومية بعيدة عن المنطقة السورية يسمح احذية . وقال
آخر انه يبيع جرائد في الشارع . وقال ثالث انه وجدته ليلة
في محطة من محطات قطار النفق نائماً على مقعد من المقاعد هناك .
فسألته من هو ذاك « البيك » الذي يتحدثون عنه . فقالوا انه
سرري يدعو نفسه اسعد بك الدعواق ويقاقل كل من يجسر ان
يدعوه باسمه دون لقبه . فلم يعد عندي شك ان الشيخ اسعد
في نيويورك . وأصبحت في شوق لألتقي به . وما هي الا
بضعة أيام حتى رأيته داخلاً من تلقاء نفسه .

جاء في ليلة لم يكن عندي فيها أحد . وكانت الساعة نحو
التاسعة والنصف . فعرفته للحال وعرفت انه عرفني وأسرعت
لمصافحته والسلام عليه . فلم يمد اليّ يداً ولا سألني عن حالي .
لا حياء الله ولا سّلم الله . ولما زلق لساني وقلت له اهلاً وسهلاً
بالشيخ اسعد رمقني شزراً وكاد يأكلني بعينه وقال : « اسعد
بك يا بو عساف ! اسعد بك ! » وسار تواءاً الى طاولة وجلس
وطلب طعاماً فقدمت اليه كل ما طلب واكثر وحاولت

مراراً ان احديثه فلم يحدثني . وعندما أكل وشبع قام وقال :
« قديم على الحساب يا ابو عساف . » وانصرف .

لقد مرّ على تلك الحادثة نحو السبع السنين ، وهو من ذلك
الحين لا يزال يزورني كل ليلة في عين الساعة التي زارني فيها
لأول مرة وعلى الحالة عينها . يأتي مثلما رأيتاه الليلة : بيده
عصاه وجريدة يتظاهر انه يطالعها وانا أعرف انه لا يحسن
القراءة ولا الكتابة . ثم يأكل وينصرف ولا يدفع فلساً وانا
أقول : « صحتين واكراماً لوجه الله . »

فقلبي لا يطيعني ان أكسر خاطره . حرام . ما هو الا
من بيت الدعواق . وقد عرضت عليه مالاً غير مرة فلم يقبل
ولا بارة . مسكين !

وتنهد محدثنا تنهدة خرجت من اعماق قلبه .

« ١٩١٩ »

شورتى^١

من مذكرات جندي مجهول

فرنسا : ايلول سنة ١٩١٨

الجمعة

رفاقي يضحكون مني وانا اضحك من رفاقي . هم يضحكون مني لغرابة أطواري . وانا أضحك منهم لغرابة أطوارهم . غير اني اضحك اليوم من نفسي اذ اراني قد تخلقت ببعض اخلاقهم . والمثل يقول : عاشر القوم اربعين يوماً فامّا تصبح منهم او ترحل عنهم . فقد أصبحت منهم اذ لا سبيل للرحيل عنهم . والى أين يهرب الجندي من جنديته ؟

*

السبت

من الفرح ما يكدر ومن الكدر ما يفرح . فقد فرحت

١ معنى هذه الكلمة الحرفي « قصير » بضم القاف وتشديد الياء ، وهي تستعمل للتعبير ، على حد ما تقول العامة في لبنان « قصيراني » .

اليوم لانتقالي من الثكنة الى المستشفى وليس مرضي بالعضال .
فقد ألمّ بي ما يدعوه رفاقي « الحكاك الفرنسي » وثلاثة
أرباعهم مصابون به . لكنّه قد حلّ بي بدرجة قريّة حتى
خدّشت اظافري جلدي تخديشاً . فلما جرى عندنا اليوم الفحص
الطبي حسب العادة رقّ الطبيب لحالي فامرني ان اذهب الى
المستشفى ليعالجني معالجة خاصة . يقولون ان سبب هذا الحكاك
حشرات مكروسكوبية تصعد من ارض المستنقع حيث
معسكرنا وتتغلغل في الجلد فتحدث الحكاك حتى يصبح المصاب
به كالجرب : يحك موضعاً من جسمه فلا يهدأ هياجه حتى يبدأ
بحك موضع آخر .

أنا الآن في مستشفى الأمراض الجلدية . عندي طاولة صغيرة
أكتب عليها . وسرير عليه ملاآت مقصور بيضاء ولحاف ثقيل
من الصوف . سأنام الليلة ملء أجفاني فلا يوقظني في منتصف
الليل الشاويش قائلاً لي ان قد جاء دوري للحراسة . ولا أقضي
تحت المطر نصف ليلي حاملاً بندقيتي على كتفي ، اعد خطواتي
واصغي لوقع مسامير حذائي على الحصى . وهذا ما يفرحني :
سرير ناعم وملاآت كالثلج ولحاف دافئ ونوم هنيء ولا شغل في
الغد . وهذا الفرع عينه يكدرني لأنه يريني الفرق بين اليوم
وفي الامس . فما اصدق اني انا الذي كان يفتersh الاخشاب

ويتوسد الكتب ويلتحف السقف ويسهر الليل مسامراً نفسه
مستفسراً اسرارها سعيداً بوحدته مكتفياً بذاته . وان ذلك
الرجل الذي كنته في الامس هو عين الرجل الذي يُسرّ اليوم
بفراش ناعم كما يُسرّ الولد بالعبوة جديدة نافراً من وحدته
مبتعداً عن نفسه . فأحنّ الى الاول واحتقر الثاني . لذلك
اقول ان من الفرح ما يكدر .

عندما دخلت المستشفى اشرباً نحوي كل من كان فيه .
وبمضهم كان يلعب بالورق . والبعض مستلقياً على الاسرة
يفزل أفكاراً بافكار .

فأعرضوا عن لهوهم واحاطوا بي كالحلقة مؤهلين « بالأخ
الجديد » وأنا أحسبهم كلهم مصابين بداء الحكاك مثلي . ثم
قال واحد منهم :

« لا شك في انك مثلنا ضحية « الغازات الخردلية » .

وكنت قد سمعت بان الغازات الخردلية هي من اكثر
الغازات سماً تحرق كل ما تتصل به . وحرقتها لا يكاد يشفى
وآلامها مرّة . فاشفقت على رفاقي اذا كانوا كما يدعون مصابين بها .
وأجبت سائلي ان مرضي لم يكن إلاّ من أمراض الجلد
البسيطة . فالتفت كل منهم الى الآخر التفاتة شك وهزء

وضحكوا وانا واقف بينهم « كالمسطول » لا ادري لماذا
يضحكون . فقال أحدهم : ولمّ التستر يا هذا ؟ انظر ، ها نحن
عشرة ، والعشرة مصابون بالغازات الحردلية ولا نستحي من
ذلك . فلماذا تأتينا انت بهذا « الكموفلاج » امراض
جلد ؟ . . كأننا لم نسمع سواك من قبل يستتر
بهذه الاعاذير !

فأجبهته والحيرة قد أخذت مني كل مأخذ ، والغازات
الحردلية قد أضحت عندي لغزاً من ألغاز الكون : قلت لكم
يا اخوان ان مرضي من امراض الجلد البسيطة . فهو ليس إلا
« حكاكاً فرنسويّاً » . لو كنت محروفاً بالغازات الحردلية
مثلكم لكنت أحسب ذاك شرفاً واجاهر به بدلاً
من ان استره !

فقهقه الجميع مرددين : « حكاك فرنساوي ! حكاك
فرنساوي ! » وتفرقوا عني مقهقين وأنا في حيرتي كمن
أصيب بمس .

*

الاحد

بين رفاقي في المدرسة واحد يدعونه « شورتي » لأنه قصير
القامة . لا تفارق الابتسامة وجهه ولا يكلّ له لسان . ومن

الغريب ان السامع لا يملّ من كلامه بخلاف كل من اعرفهم من الثنارين . ففي كلامه خفة ولو خالطتها بداءة . وبداءته لا تخدش الأذن ولا تمتعض منها النفس . اذا شتم ففي شتمته عفة . وان مزح ففي مزاحه نكتة . وان قام بحركة ففي حركته عياقة . فكيفما انقلب ومهما قال يستدعي استحسان الجميع فيقهقون تارة ويصفقون اخرى . ولولاه لكان هذا المستشفى مقبرةً وهذه الاسرةً لحوداً . وهو الذي لقبني « بالحقاك الفرنساوي » ولم يسألني عن اسمي . غير انه اذا ناداني بهذا اللقب ففي ندائه تودد لا احتقار . اما الآخرون فيقصدون به تحقيري واغاظني بالتهكم عليّ . ولا يدرون ان نفسي ارفع من ان يطالها تهكمهم .

✱

الاثنين

رأيت في حياتي كثيراً من الناس . غير اني مثل « شورتي » لم ارَ . هو قبيح المنظر ، افطس الانف ، واسع الشدق ، غليظ الشفتين ، نافر الوجنتين ، ممتنع البشرة ، شعره طويل قاس منتصب على رأسه كأنه مسلات القنفذ ، وكأنّ بين الشعرة والشعرة ثأراً فلا تلتصق الواحدة بالآخرى . اذناه صغيرتان لا

تكاد ان تظهر ان من تحت الشعر ، وكذلك عيناه ، لكن بهما
جاذبية غريبة تنسل من بين أهديهما الكثيفة . ولست أدري
ما الذي يجببه الى رفاقه ، أقبح منظره ام الجاذبية في عينيه .
فلا شك في ان الجميع يحبونه . اذا غاب سكتوا او انصرفوا
كل الى لعب الورق أو الزهر . ومتى حضر التفوا حواليه
كالحلقة وارتفع ضحكهم وازداد هرجهم ومرجهم . كلهم يتودد
اليه واسمه على ألسنة الجميع فلا تسمع الا من ينادي : شورتي !
لله درك ! فلولاك لكنا نموت ضجرأ . شورتي ! قص علينا
هذه القصة او تلك . شورتي ! ما رأيك في هذه المسألة او في
ذلك الأمر ؟ . .

فهو فيلسوفهم وشاعرهم و « مهرجهم » في وقت واحد .
ولقد سمعته يبدي آراءه في امور كثيرة من السخيف المضحك
الى الجليل المبكي . ومن الغرابة انه سواء أحدث عن الحكاك
الفرنساوي ام عن الحياة بعد الموت فسامعوه يقهقهون حتى
الغصة . اما هو فضحكته لا تتجاوز الابتسامة .

كثيراً ما يجتمع رفاقي ويأخذون بتبادل اختباراتهم
الحربية . ذاك يقصّ عما جرى له في معركة « شاتويري »
والآخر عما لاقاه في موقعة « سان مييل » والثالث عما شاهده

في معركة « سواسون » وهلم جرّاً . اما شورتي فلم اسمع منه
حتى الآن كلمة عن المعارك التي خاضها مع اني عرفت من
وكيل المستشفى انه حائز على مدالية « صليب الحرب »
الفرنسية وان اسمه قد رفع الى وزارة الحربية الاميركية
لتعطى له مدالية « الخدمة الممتازة » . وقد سمعت واحداً يسأله
مرة رأيه في الحرب ، وآخر نظره في « البوش » ، فتظاهر كأنه
لم يسمع السؤال وغير مجرى الحديث .

✱

الثلاثاء

البارحة مساء بعد ان زارنا الطبيب وانصرف مشى شورتي
وراءه حتى الباب .

ثم عاد بعد دقيقة وسأل بصوت عالٍ : يا شبان هل على
بالكم قليل من الوسكي ؟

فضحك الجميع ظناً منهم انه قد جاءهم بنكتة جديدة .
وربما صدق أحدهم بنزول ملاك من السماء على الارض قبل ان
يصدق بوجود وسكي في المستشفى .

غير ان ضحكهم لم يكن ليسكت شورتي فاعاد الكرة

قائلاً : دعوا المرح جانباً ، فإذا ما جئتم الليلة بوسكي فاني والله سأتيكم بابنة عمها ، فما قولكم ؟

فأجاب القوم مداعبةً وهم لا يصدقون ان في كلام شورتي شيئاً من الجد : هات لنا ابنة عمها فحلاقيماً قد جفت من العطش !

وللحال غاب شورتي لحظة وعاد بزجاجة كبيرة فيها سائل ابيض ونادى : تعالوا اليّ ايها العطاش والناشفو الحلاقيم وانا ارويكم !

فهب الجميع من أسرّتهم واحاطوا به احاطة السوار بالمعصم وأخذوا ينظرون الى الزجاجة نظر من لا يزال مشككاً في ان بينها وبين الوسكي اقل قرابة او صلة .

لكن شورتي ما عثم ان بدد شكوكهم اذ اخبرهم يجد ان ما في الزجاجة هو سبيرتو من اعلى طبقة وانه ككيماوي قد فحصه فوجده لا يضر اذا مزج بقليل من الماء ، وان له من الفعل ما للوسكي بل اكثر ، وانه وجد الزجاجة في مستودع العقاقير والادوية الذي نسي وكيل المستشفى افقاله . فجادوا في الحال بالكؤوس واداروا الراح وانخفضت اصواتهم من الضجيج الى الهمس كأنهم يتممون سرّاً الهياً . ودعوني

لمشاركتهم فرفضت . وخوفاً من طاريء يطراً اوفد شورتي واحداً من الزمرة الى الباب ليحرسه ، ثم سكب لنفسه من الزجاجه كأساً طافحه ورفعها بيده وخاطب رفاقه قائلاً :

« ايها الاخوان ! لقد جمعنا اغرب المصادفات في اغرب الاحوال فتعاشرنا وتآلفنا وتحاببنا . وقد ربطتنا رابطة النكبة المشتركة . وكلنا ضحية الغازات الخردلية . »

فضحك السامعون عند ذكر الغازات الخردلية هاتفين :
الغازات الخردلية ، الغازات الخردلية . يا لها من غازات سامّة قتالة !

واستأنف شورتي كلامه :

« لقد جئكم غريباً عنكم فأصبحت واحداً منكم . جئكم فوجدتكم مستسلمين لليأس ووجدت اليأس يقرض قلوبكم قرضاً حثيثاً ، فحاولت ان اخفف من بلواكم ، فأقمت من نفسي لكم مهرجاً . وقد نجحت بما قصدت . فلقد مكثت بين ظهرانيكم نحو الشهر . فمرّ الشهر ونحن بين ضحك ولعب حتى نسينا الخردل وغازات الخردل . ما طلبتم اليّ شيئاً في طاقتي وضنت به . ولا سألني أحدكم امراً وخيبته . بل كرس لكم كل وقتي من نهوضي من الفراش حتى عودتي اليه . أقول ذلك لا

طلباً لأجر او رغبة في ثواب . فما ثوابي إلا محبتكم ولا
اجري الا ان اكون رفيقاً لكم وتكونوا رفاقاً لي . غير اني
بدالة الرفقة والمعشر ارجب ان اطلب اليكم أمراً زهيداً فهل
تجيبون ظلي ؟ »

فهتف الجميع بصوت واحد : اطلب ما بدا لك يا شورتي
فكلنا رهن امرك !

فاستطرد شورتي خطابه :

« ما شككت قط يا اخوان في ان خاطر شورتي عزيز
لديكم . فما اطلبه هو ان تتروكوني الليلة مرتاحاً فلا تسألوني
سراً ولا تخاطبوني بكلمة ولا يقترب احدكم من
فراشي . فاني ارجب ان انفرد بنفسي لاني بحاجة الى
الراحة والانفراد .

« لقد شربنا وفرحنا وضحكنا . والآن فلنشرب ايها
الاخوان سر اجتماعنا بغير ميعاد ، فكما جمعتنا مصادفات
غريبة هكذا ستفرقنا مصادفات غريبة واحوال غريبة . فمن
يدري ماذا يضر الغد ؟ »

وشرب كأسه حتى الثمالة وشرب الآخرون . واذ ذاك رفع
الزجاجة الفارغة بيده ورمى بها الى الارض فطارت شظايا ،

ثم التقط واحدة منها وجرح بها اصبعه حتى سال دمه واتى
بمكنسة فكتس الشظايا . واخيراً دخل مستودع العقاقير وجاء
بقليل من الشاش وربط به اصبعه وانطلق رأساً الى فراشه
وارتمى عليه ، كل ذلك باقل من لحظة والتسعة الآخرون
ينظرون مبهوتين كأن قد انقضت عليهم صاعقة .

كنت ارقب شورتي وهو يخاطب فرايت في ملاحظه معاني
جديدة وسمعت في صوته رتة غريبة . فما جاء على آخر خطابه
حتى تقلصت عن وجهه ابتسامته الحلاية وادلهمت عيناه وكأني
رأيتها قد تبللتا .

ويظهر ان الآخرين قد لاحظوا ما لاحظت فلم يأخذوا
كلامه على مأخذ المزح وانصرف كل الى فراشه . إن تكلموا
فهمساً ، وان مشوا فعلى اطراف اقدامهم . وقد سمعت جاري
يهمس بأذن جاره : ماذا ترى حلّ برفيقنا شورتي ؟ فهو يخاطبنا
الليلة كأنه يودعنا . فهل تقرر شفاؤه وعرف انه سيخرج غداً ؟
هنيئاً له ، اما نحن فنعلم العلم اليقين ان لا شفاء لنا !

✱

الثلاثاء

ها قد مرّ اسبوع منذ سطرت آخر كلمة في مذكراتي

وحتى الآن لم أجد في يدي قوة لأحمل القلم واكتب .

لقد تمّ ما قاله شورتي في خطابه عن ان مصادفات غريبة
جمعتنا في احوال غريبة وستفرقنا مصادفات غريبة واحوال
غريبة . ففقدنا قد انفرط ونحن اليوم بدون شورتي . . .

بعد ان أفلت دفتري ليلة الثلاثاء الفائتة واطلقت روحي في
عالم الاحلام شعرت ، والنعاس يطبق اجفاني ، بيد تهزّني
فأفقت كالملذوع وسمعت صوتاً يهس في اذني : « لا تخف !
سألتك بالله ان تنهض . واياك ان تنبس بكلمة ! »

فعرفت صوت « شورتي » ، وقبل ان اتغلب على دهشتي
سمعتني يسألني : « هل عندك قلم رصاص ؟ هل عندك شمعة ؟
هل عندك ورق ؟ انر شمعتك واجلس . هاك ثقاباً . على
مهلك . على مهلك . كيلا توفظ احداً . »

فانرت شمعتي وجلست في فراشي واذا بشورتي واقف بجانب
سريري وعليه بزته الجنديّة بكاملها من الحذاء حتى القبعة .
اصبعه ملفوفة بالشاش وشعره الاسود نافر من تحت قبعته
وعيناه تقدحان شرراً . وبدون ان يفسح لي مجالاً لاسأله ماذا
عسى ان يعني كل ذلك قال لي : « قم واتبعني . لا تسَلْ .
هات الشمعة معك . ولا تنسَ القلم الرصاص والورق . اتبعني

واياك ان يُسمع لقدميك صوت . »

فلم امانع لاني شعرت للحال ان ارادتي قد انسحبت مني
فاصبحت بين يديه كالطفل يقودني كيف شاء ويفعل بي ما
اراد . لذلك تبعته فادخلني مستودع العقاقير واقفل الباب .
ثم أمرني ان اركز الشمعة على طاولة هناك ، واجلسني على
صندوق من الحشب ووقف بجانبني ثم قال : « لا تطرح علي
اسئلة ، فستفهم كل شيء . ولا تستغرب مناداتي لك باسمك ،
فانا اعرفك واعرف اسمك . لقد وجدت فيك فضيلة لم اجدها
في سواك . وهي فضيلة السكوت . وسكوتك ليس سكوت
الأبله بل سكوت المفكر المتعمق . فانت لا تعرقل افكارك
بالكلام لانك تعرف لذة السكوت . لذلك قد اخترتك من
بين الآخرين لأنك تفهم وهم لا يفهمون . فخذ قلمك واكتب ،
لأن يدي لا تطاوعني على الكتابة :

« سيدي المحترم ودرود لسن »

فكتبت ذلك ووقفت استعداد لكتابة ما يلي . غير انه
بلمحة طرف انتشل القلم من يدي ومد خطأً فوق ما كتبت
وارجع اليّ القلم قائلاً :

— لا بل اكتب :

« الى حضرة الجنرال دجان برشنغ قائد الحملة الاميركية
العام . . . » هل كتبت ذلك ؟ لا ، الافضل ان تمحوه .
هل محوته ؟ اكتب هكذا :
« عزيزتي فلانة .

« لا أدعوك باسم لأنني من بين كل اسماء النساء لم اجد
اسماً يليق بك . والاسماء بين الناس تستعمل كالدمغة للماشية
ليميز واحدها عن الآخر . فهي لا تؤدي صفات المسمى .
وصفاتك لا يستوعبها اسم ، فانت ارفع من ان تسمي واجل
من ان توصفي .

« انت لا تعرفيني اما انا فاعرفك ، وان كنت لا اعلم من
انت ولا اين ولدت ومتى . فانا موقن بأنك تتنفسين في هذه
الدقيقة في مكان ما ، في بلاد ما . انت قبيحة المنظر في اعين
الناس جميلته في عيني . فانا احب انفك الأفطس وذقنك
المستطيلة واحناكك النافرة وجبينك المغطى بالشعر وعنقك
الضائع بين رأسك وكتفيك ، وكتفيك المحدودبتين وصدرك
الملتصق بظهرك وخصرك الذي يحجب وركبك . احب
حاجيك الكثيفين واحب عينك الصغيرتين ففيهما قد
تجلت روحك .

« لقد حفظت جسمك طاهراً من الاقدار اما انا فقد
دنست جسمي بكل ادران العالم لان مرضاً خبيثاً يأكل لحمي
وينخر عظمي ويمتصّ دمي . . . »

هنا ارتجفت يدي واقشعر بدني فلم اتمالك من ان أقف
عن الكتابة وارفع بصري الى « شورتى » ، وإذ رأى الدهشة
على وجهي والسؤال في عيني قال وكأنّ الكلمات تتسابق
للخروج من بين شفثيه :

— مالك وقفت ؟ أأدهشك ذكر الداء الحبيث ؟ الا تدري
انني مصاب به ؟

قلت : لقد سمعتك مراراً تشكو من الحروق ، من الغازات
الحردلية !

فاجاب هزأً رأسه وعلى وجهه ابتسامة مرارة وحزن عميق:
— ذاك اصطلاح نسير عليه هنا من باب « الكموفلاج »
وما كنت احسبك جاهلاً لهذا الحد ، والآن احلفك بالله ألا
تقاطعني فيما بعد . تابع الكتابة :

« . . . » فأننا جيفة حيّة بين اجياف متحركة ، ويدياي
ملطختان بدماء بريئة لأنني جندي وعمل الجندي القتل . لقد
حرمت اكثر من زوجة لقاء زوجها ، وحبوبة عودة حبيبها .

وقد أوجدت في العالم اكثر من ثكلي ، واكثر من يتيم
ويتيمة . ولقد بثمرت اكثر من أمل ، وفقات اكثر من عين ،
ودمرت اكثر من بيت . لذاك دعاني الناس شجاعاً ،
وكافأوني بما يحسبونه شارات شرف وفخر . غير اني مجرم في
عينيك ، وانا مقررٌ بجرمي ولا اطلب صفحاً ، فطلبي الصفع منك
هو اهانة لك . ولقد سببت لك اكثر من اهانة ، فهل اضيف
الآن الى الطين بلّة ؟

« لو كنت اجهلك لكنت اطلب منك صفحاً . غير اني
اعرفك واعرف انك لو كنت مكاني لفعلت ما انا عازم ان
افعل . وماذا يفعل جاهل جازف بحياته فخرها ؟ ماذا تفعل
جيفة متحركة ؟ وان تسأليني كيف جازفت بحياتي ، ولماذا ؟
فالبك الجبر :

« انا لا اعرف لي اباً ولا امّاً ، وقد سمعت البعض يقولون
اني لقيط . وسواء كنت لقيطاً ام لطيماً ، فالذي اعرفه اني
ربيت بلا اب ولا ام . وهكذا نشأت في العالم . ولا أدري
من الذي وضع بين ضلوعي قلباً لم يختلج في صدر بشر قلب
نظيره ، كأنّ دمه كبويت ملتهب وشرائنه اسلاك كهربائية
تربطه بكل ما رسا ودبّ ومشى وطار على وجه الارض
وفوق وجه الارض .

« حملتُ هذا القلب ستة وعشرين ربيعاً بين الناس ولم
اجد بينهم من كان قادراً ان يلتهم بلهيبه . لا بل لم اجد
بينهم من ادرك اني احمل في داخلي قلباً مستعراً . اذا كشفت
لاحد من قلبي واحسَّ بلهيبه هرب . وان رششت على قلبي
رماداً من رماد عادات الناس وطقوسهم وتأديهم وتسترهم ،
حسبوني جماداً ولم يروا مني سوى انفي الافطس وساقى
القصيرتين وشعري المنتصب على رأسي كالحراب . ستة وعشرون
ربيعاً قضيتها بين الناس وفي صدري أتون من الحب . فلم اجد
من تجاسر ان يذني قلبه من قلبي ليحترقاً معاً أمام مذبح
الحب . ولا كان قلبي يحترق فاستريح . ولا زيت الحب ينضب
فتهدأ نيرانه . وجاءت الحرب فقلت هذه فرصة ثمينة فلاغتنيها
ولأحوّل نار الحب في قلبي الى نار بغضاء . فالبغض قد اصبح
اليوم دين العالم . واذا اتقد قلبي بنار البغض اتقدت معه
قلوب . فليحترق قلبي مبغضاً اذا تعذر عليه ان
يحترق محباً .

« وهكذا تطوعت في الجندية . ثم سألت نفسي : ها انا
اليوم مبغض بين مبغضين ، وناقم بين ناقمين . فعلى من
أغضب ومنّ انتقم ؟ فسمعت رفاقي ينددون بالأوتقراطية

والاستبداد والظلم والبربرية والقوة المطلقة . فقلت ها هم اعدائي فلاصين عليهم كبريت نقمتي . وذهبت بنار بغضائي الى ساحة القتال فلم اجد هناك لاعدائي من اثر . وجدت جهلاً يناطح جهلاً ، وبشراً يذبحون بشراً ، وكلهم مدفوع لا دافع . فادركت ان الناس لا يقدرّون ان يبغضوا إلاّ الناس وانهم قاصرون عن بغض شر مجرّد كما انهم قاصرون عن حب خير مجرّد . ووجدت نار بغضائهم كنار حبهم ، شرارة لا تكاد تلمع حتى تنطفئ .

« حينئذٍ رششت على نار بغضائي رماداً ورحت بين الناس امدح ما يمدحون وأذم ما يذمون . وكفّنت قلبي بابتسامة بسطتها على وجهي . فرأى الناس ابتسامتي فاحبوها ، اما القلب المكفن تحتها فلم يروه ولم يحفلوا به . ودفنت بلوأي تحت مظهر المجون فاعجب الناس به ولم يشعروا ببلوأي . وقلت اسير مع الناس حتى النهاية فاتنعم بما يتنعمون . فدخلت كهوف ملذاتهم وخرجت منها كما انا اليوم « جيفة حيّة » . وما كنت لآسف على قلب خمدت فيه نار الحب ، وجسم ينخره اليوم سوس الفحشاء لو لم يتراء لي شخصك في المنام .

« فلقد ادركت الآن ان القلب الذي كنت ابحت عنه ،

والروح التي كنت انشدها هما حقيقتان لا خيالان . فذاك القلب هو قلبك وتلك الروح هي روحك ، وانت حينما كنت فانك حقيقة لا وهم .

« ولماذا لم اعرفك قبل ان خمدت نار حبي وفارقتني طهارة الجسد ونقاوة الروح ؟

« لماذا لم التقِ بك يوم كنت احمل في صدري مشعلاً وكانت روحي خلية الفضيلة وجسمي انقى من الثلج ؟

« اما الآن فقد عرفتك لتزداد حرقتي . عرفتك بعد ان لم يبقَ لي ما يليق ان اقدمه لك . فانت لا ترضين بي كما انا . وانا لا ارضى ان ادنس طهارتك بقذارتني ولا ان اطفئ حبك بروماد حبي .

« هل مللت هذيانى ؟ ومن إلاك يفهم هذيان روحي ؟ فانت ترين ما لا يرى ، والناس لا يرون إلا الظواهر . وانت تدركين عظم حرقتي ، والناس يرون ابتسامتي ويسمعون مجونى فيقولون : هنيئاً له ، فهو بعيد عن الهم والهم بعيد عنه !

« لذلك وان فقدت حياتي فقد وجدتني اليوم في قبضتك . ولكي اكون اهلاً للحصول عليها سأطهر نفسي وجسمي من

كل ادرانها وسأعود الى موقد الحب فانفض الرماد عن قلبي
واضع محله قبساً من ذاك الموقد ، فيعود قلبي يشتعل
وحينئذ نجعل من قلبينا مشعلاً يلتهب ولا يحترق .
فالى اللقاء - شورتى »

✱

كتبت آخر كلمة وقد اعترتني هزة وتضعضت افكاري
كان دماغي قد تحول الى مسحوق دقيق ذرته يد خفية في
هاوية تلبّدت بدخان . ورفعت عيني الى شورتى فما كدت
اصدق عيني لأني رأيت شجاً غريباً قد حلّ محله كأنه خيال
من عالم آخر . رأيت وجهه بلون التراب وعينه كأنهما من
زجاج وقد فارقهما كل ما كان فيهما من نارٍ ونور . وتحركت
شفتاه فيخيل اليّ ان الموت واقف بجانبى يخاطبني وسمعه يقول
لي : أتلى عليّ ما كتبت !

فدخل صوته في اذني كصرير الأسنان أو كقضضة العظام .
فقلوت عليه الكتاب من اوله ، وما أتيت على آخره حتى
سمعه يخاطب نفسه وهو لا يزال واقفاً كالطيف : « هذيان . . .
هذيان . . . فهل ترى تفهم هذياني ؟ بلى تفهمه . ففي قلبها نار

كالتى كانت في قلبي . وهى الوحيدة بين بنات حواء التى تحمل
في صدرها ناراً . . . »

ثم وضع يده على كتفى وقال دون ان ينظر الى :

— اطوِ هذه الرسالة وضعها في غلاف واحفظها في جيبك
الى أن يأتى وقتها . سألتك بالله ان تحتفظ بها كما تحتفظ بحديقة
عينك . واذا عدت من الحرب سالمًا — وانت ستعود سالمًا —
فسلمها أياها بيدك ، أسمعت ؟ بيدك لا بيد سواك ، اذ ليس
من يصلح رسولاً بيني وبينها إلا انت . والآن عد الى فراشك
فقد حرمتك قليلاً من النوم . »

قال ذلك واخذ يدي بيده فشعرت كأني اصافح الموت ،
ثم استطرد كلامه :

— اشكرك يا اخي ، وليحفظك الرب لتبقى طاهر العقل
والقلب والجسد . لا تسألني الى اين اذهب ، فانا ذاهب الى
المطهر . وداعاً !

وتوجه نحو الباب ففتحه وخرج ، ثم عاد بعد هنيهة
وقال لي .

— اذا سألكم وكيل المستشفى او الطبيب عن زجاجة

السبيروتو فقولوا له ان « شورتى » جرح اصبعه فوجد زجاجة
السبيروتو واحب ان يغسل جرحه فوَقعت الزجاجة من
يده ونحطمت .

وعاد فخرج وكان قلبي خرج من صدري معه .

وبقيت برهة كالمأخوذ احاول جمع شتات افكارى فلا
اقدر . ثم نظرت الى شمعتى فاذا بها ترمى آخر ذرة من شعاعها
المتلاشي . فنفخت عليها نفخة خفيفة وعدت كالسكران ابحت
عن سريري بين الاسرة . وغطيط رفاقي لا يزال يتصاعد في
فضاء القاعة متوازناً متواصلاً . فخيّل الى ان ذلك الغطيط لم
يكن إلا أتات مخنوقة خارجة من صدور اناخ عليها الموت
بكلكله . وان تلك الاسرة لم تكن إلا لحوداً تضم امواتاً لم
يدرکوا بعد انهم قد ماتوا ، والعالم يدعوهم « حماة الوطنية
ونصراء العدل والحرية . . . »

وارتميت على فراشي منهوكة وعيناي تجولان في الظلمة
فلا تبصران ، وافكارى تسبح في الفضاء فلا تجد ما
تستقر عليه .

وبينما انا كذلك اذا بصوت الخفير خارجاً : هالت !
قف ! من القادم !

وعقب ذاك سكتة قصيرة ثم : قف ! واذا لم تقف صبيت
عليك النار !

ودوى الرصاص ، فاجفلت وانقبض قلبي وتقلل جاري
على فراشه ، وتمتم بضع كلمات لم افهمها ، ثم انقلب من
جانب الى جانب وعاد يغط وعادت سكتة الليل رهبة
مخيفة جليلة .

كلما نظرت الى فراش « شورتي » ورأيت فارغاً مهجوراً
هجمت الدموع الى عيني وفاضت قسراً عني .

غير اني اتعزى بان شورتي اليوم في مطهره . فهنئاً له !

« ١٩١٩ »

فهرست

٧	ساعة الكوكو
٤٠	سنتها الجديدة
٥٥	العافر
٩٠	الذخيرة
١٠١	سعادة « اليك »
١١٢	شورتي

X3
7